وليد مدفعي

مُحِب المشاكل

رواية

الطبعة الأولى

الاهداء

حبيبتي ، حبيبتي ، حبيبتي .
عتبي عليكِ ، أن حبك لي لم يكن أقوى من الموت .
وصار حبي لكِ أقوى من الموت .
إلى شقرائي الراحلة فخرية ...
أهدي قصة حب صادق ، كما كان حبُّنا صادقاً .

مساء ٢٦ / ٥ / ٩٨٤

وليد

— ١ —

لقاء في الكُره

«الحب هو اللحن الوحيد الذي يرافق أفراحنا وأحزاننا ، ولا قيمة لوجود لا يغمره الحب» .

كانت هذه هي العبارة الأخيرة ، التي نطق بها المذيع خلف الميكرفون في صالة فندق بلودان الكبير ، فدوى تصفيق الحضور ، وضجت الصالة بألحان الموسيقى والصخب .

حضور كثيف ومتنافر ، يضم أشخاصاً من مختلف البيئات ، مثقفين وجهلة وأثرياء ورسميين ، وأصحاب دخل محدود وطلاب ، سهروا معاً لانتقاء أبرع راقصين ، بترتيب من مؤسسة «جورجيت الباريسية» .

أثواب السهرة رائعة .. وعطور غالية تفوح .. وزنود

ـسور ، وتبرق الحلي فوق الصدور .. وتمتلىء الحلبة بالراقصين والراقصات ، وترن الضحكات ويدور الهمس واللمز .. ولا يفتر اللسان عن الكلام .

○

تصدر «محب الراعي» وهو مقاول شاب طاولة تتسع لأشخاص كثيرين وتكاد تعادل الطاولة التي نصبت للرسميين في الطرف المقابل ، وبدا من تصرفاته وأسلوب أوامره الى خدم الفندق ، أنه من نزلاء الفندق ، وأن تكاليف الطاولة الباهظة من نصيبه وحده .

وجلس المحامي سليم الباسم مع خطيبته رجاء قدري في الركن المقابل لطاولة محب ، حيث لم تسمح أحوال سليم المادية بتقدم الصفوف ، فحجزت له ولخطيبته هذه الطاولة الصغيرة المنزوية ، التي بقيت مائدة فقيرة حتى نهاية السهرة .

لقد أنهى سليم تدريبه على المرافعة أمام المحاكم ، وبدأ يعمل لحسابه في مكتب يخصه ، أما خطيبته رجاء ، فلم يمض

على تخرجها من الجامعة وعملها كمدرسة للغة العربية سوى سنتين ، وكانت تعين أسرتها بقسط من راتبها .

انحنى المحامي سليم على أذن خطيبته ، ليحدثها عن ذلك المقاول الشاب مزهواً بمعرفته بعض التفاصيل عن حياته ، قال لها :

ــ ذاك الشاب الذي يتصدر الطاولة هناك ، يتقن إنتهاز الفرص المالية وهو منفتح على الحياة ، يصرف بسخاء على أصدقائه ومعارفه ، وهذا ما يزيد في نفوذه في جميع الأوساط .

سألت رجاء دون اهتمام ، مسايرة الحديث مع خطيبها :

ــ ما هو عمله ؟

ــ يهتم ببناء الأبنية ، ولديه مكتب فخم يختص بشراء الأراضي وبيع الشقق .

التفتت رجاء نحو طاولة المقاول ، ولكن الأضواء الخافتة منعتها من تمييز ملامحه ، وكررت المحاولة بدافع الفضول فقط ، فقد كانت على يقين من عدم لقائها به مرة ثانية ، وهمست في أذن خطيبها ، ضاحكة :

— أميز في سلوكه عجرفة واضحة ، **أظنه حماراً** ، يحمل حملاً ثقيلاً من الذهب .

— زرته مرة في مكتبه لأنهي خلافا ، وقع بينه وبين امرأة اتفقت معه على بناء شقة لها ، إنه ذكي يتقن حبك العقود بأسلوب ماكر ، يضع امتعاقدين معه تحت رحمته .

— أكره هذا الصنف من الرجال .

— كان اسم موكلتي أمل الحلبي .

— أنا أعرف موكلتك أمل الحلبي ، كانت جارتنا ذات يوم .

— كانت موكلتي تملك بيتاً صغيراً ، في منطقة المزرعة ، وقع ضمن التنظيم ، فاتفقت معه على بناء أرض البيت ، فصاغ لها عقداً مربكاً قاسياً ، عجزتُ عند قراءته عن مساعدتها .

— كان بيتنا في تلك المنطقة قبل التنظيم ، كنا نقطن الحارة التي هدمت ، وسببت انتقالنا الى منطقة المزة . وكانت أمل جارتنا ، وهي امرأة مطلقة وقحة وسليطة اللسان ، تعيش مع أمها ، أستغرب كيف وقعت امرأة على شاكلتها في حبائل مكره .

— عندما قرأت الإتفاق ، لاحظت لديه رغبة شديدة

في قهرها ، فقد **استكتبها عقداً** ظاهره الشراكة وحسن النية ، ولما عجزت عن تنفيذ بنوده كادت تفقد الأرض .

— كيف انتهت هذه القصة المثيرة بينهما ؟

تابع سليم سرد القصة على خطيبته :

— نصحتها بعدم اللجوء الى المحاكم ، لضعف حجتها ، ورافقتها إلى مكتبه ، واشتد الخلاف بيني وبينه بحضورها دون الوصول إلى نتيجة ، وظل مصراً على حقوقه كاملة بموجب العقد ، فطلبت جارتك مني آنئذ أن أنصرف وأدعها معه ، لتقنعه بالبكاء والإسترحام ، فتركتهما معاً ، وعلمت منها في اليوم التالي أنها حصلت على شقة فخمة ، وشروط أجود بكثير من تلك التي كانت موضع الخلاف .

— ليتني شاهدت جارتي وهي تبكي وتسترحم ...

صمتت ونظرت الى خطيبها وتابعت قائلة :

— هل تعتقد أنها بكت واسترحمت في غيابك ؟ . فرقّ قلبه لها ، أنا لم أشاهد أملاً طوال أجل جيرتها ، تلجأ إلى هذا الأسلوب .

لم يجب سليم على سؤال خطيبته، لأن الموسيقى عادت تصدح، بأصوات مرتفعة، فصار يتعذر سماع الكلام دون صراخ، وقام الراقصون إلى الحلبة واشتد فضول رجاء، لأن تبصر محباً عن قرب، وهو لاه مع ضيوفه، فوقفت وجذبت يد خطيبها، داعية إياه إلى الرقص فتبعها.

رقصا معاً عدة ألحان، وكانت رجاء تأمل أن ينفسح المجال أمام عينيها لترى ذلك الشاب الثري المتعجرف، لكن الإزدحام الشديد في حلبة الرقص، أجبرها على الدوران، في بقعة ضيقة الأبعاد، ولمحته مراراً من مكانها، ولكنها لم تملأ عينيها بوضوح من صورته، فبقي في ذهنها غائم الملامح، وميزت امرأة تجلس إلى جانبه، ونساء تفرقن حول الطاولة.

○

لم تكد رجاء تعود إلى طاولتها، حتى قفز السؤال الأخير الذي لم يجب خطيبها عليه، فكررته هامسة:

ــ كيف أنهت موكلتك أمل مشكلتها، أجبني قبل أن تعزف الفرقة ألحاناً جديدة، فيصعب الحديث؟..

ــ أعلمتني أنها ستبكي وتسترحم طالبة مساعدته.

ــ لمَ أصرت على الإنفراد به، ولم تبكِ وتسترحم في حضورك ؟؟..

ــ أنا شخصياً أفضل راحة فكري بعد إنتهاء القضية، وأتوقف عن دراسة الوقائع والإستنتاج، مختزناً قدرتي لحل قضية أخرى.

لم يشف هذا الجواب غليل رجاء، لأنها كانت تعرف أملاً معرفة جيدة وحاولت أن تستعيد صورتها، فتذكرت أول ما تذكرت، فخذيها المليئين، اللذين كانت تفاخر بهما نساء الحارة، وكانت تهمل سترهما عن قصد، عندما كانت تصعد على السطح لتنشر غسيلها، وكانت تتعمد الإقتراب من حافة السطح المطلة على الحارة، لتنشبك عيون الرجال المارين محملقة بين ساقيها، حتى إذا تعثر رجل منهم في مشيته، أو عثر بحجر ووقع مرتطماً بالأرض، رنت ضحكتها عالية فوق السطح، واغتاظت زوجته كثيراً.

تصورت رجاء جارتها من خلال معرفتها القديمة، وقد جلست في مكتب المقاول الفخم، واضعة ساقها فوق قمة

ركبتها، متيحة الفرصة لعينيه أن تنفذا إلى أبعد ما يشتهي شاب في عمره. ثم تصورتها، وقد شبكت نظرتها مع نظراته، ورنت ضحكتها بخلاعة. ولم تستبعد رجاء على تلك المرأة، أن تتابع إغراءها، فتخيلتها، وقد مشت إلى الباب وأغلقته بالمفتاح، ثم التفتت إليه وقالت: هينلك.

انتبهت رجاء من شرودها، لما أمسك خطيبها رسغها وهزها قائلاً:

— ما بك شاردة عن الحفل؟

— حدثني عن سمعته، ما هي حال سمعته؟؟؟

ضحك المحامي سليم، وأطرق رأسه فوق الطاولة من شدة الضحك، فدهشت خطيبته رجاء وقالت مؤكدة:

— لِمَ تضحك..؟ أخبرني ما هي حال سمعته بين الناس.

— اسمعي، اسمه محب الراعي، ويلقبه الناس كلهم بمحب للمشاكل لكثرة ما عرف عنه، من مشاكل مع زبائنه، وخاصة من النساء، لم تبق له حكايا الناس سمعة واحدة طيبة،

تلوكه الألسن مئات المرات في اليوم الواحد، وينتشي الشباب بقصص فضائحه، ويتد[illegible] الشيوخ من إعادة سردها.

حملقت رجاء ببلاهة، إزاء هذا الوصف غير المشرف، لرجل يتصدر مائدة كبيرة في حفلة عامة. ثم شردت برهة مع اسم محب، إنه اسم نادر، قلما يصادف بين الأسماء، ولكن رجاء عرفت في أول عمرها فتى كان يدعى محباً، عرفته مدة دون أن تعرف اسمه الكامل، وشتان بين هذا وذاك، ذاك فلاح بسيط ساذج، وهذا مقاول ذكي جريء، ذاك خجول طيب القلب، وهذا ماكر جسور.

حاولت رجاء أن تستعيد في ذهنها شخصية محب الذي عرفته، عندما كانت طالبة في نهاية الاعدادي، ولكن تفاهة القصة، وكون صاحبها يستحق الرثاء ومرور سنوات عديدة، ريثما أنهت رجاء الثانوي وتخرجت من الجامعة، فاجتمعت الأسباب كلها لتمنع رجاء من الاسترسال خلف ذكرياتها، وردتها إلى محب الموجود هناك وسط الطاولة الكبيرة، فقالت تحدث خطيبها:

— قل لي إذن، كيف يجد محب من يقبل عشرته، على

سوء سمعته الشديد ؟؟.. بل كيف تقبل امرأة من أسرة محتشمة، أن تجلس إلى جانبه ؟.. بل كيف قبلت أولئك النسوة مجالسته، وهن كثيرات حول طاولته.

ابتسم خطيبها سليم ورد عليها قائلاً :

ـ لا تبالغي فتتصوري وجود محب مع عشيقاته الآن، أكثرهن موجودات مع أزواجهن أو أقربائهن.

قالت رجاء بكبرياء :

ـ أنا أكره هذا الصنف من الرجال، وما كنت شخصياً لأفرط بسمعتي بقبول دعوته، حتى لو قبلت أنت نفسك.

ـ كنت خصمه في قضية جارتك السابقة أمل، ومازلت خصمه في دعوى ثانية، ولا أظنه يرحب بدعوتي إلى طاولته.

○

ارتفعت الموسيقى، فصمت الخطيبان، وضجت

الحلبة بالمتسابقين الذين رقصوا بحيوية، يحدوهم الأمل في الفوز بكأس المسابقة، أو بواحدة من الجوائز الموعودة.

استبدر القمر في السماء، وقدحت النجوم بما بقي لها في عتمة سماء متبددة.. وبدأ الليل يغلس بطيئاً، على ألحان الفرقة الموسيقية الهادئة. فصار الجو رائعاً، وأحس الحضور ليلة رطبة، دبقة بالنشوة، عابقة بخدر النساء وشذى عطورهن.. تغري على الحب، بل على الهوى، وحتى الهيام.

أمسك المحامي سليم بيد خطيبته، فابتسمت مرجئة دعوته إلى الرقص إلى حين عودتها، ونهضت وابتعدت مشيرة إلى مستراح السيدات، فقد شعرت بحاجتها إلى تجديد زينتها وعطرها، قبل ظهورها على الحلبة بين الراقصين.

شعرت رجاء بالرضا، وهي تتأمل نفسها في المرآة، فمايزال شعرها المرفوع فوق قمة رأسها معقوصاً بتسريحة متقنة، يظهر انسياب عنقها الجميل، ولوت شفتها السفلى بدلع، وطلتها بالأحمر، ثم دغمتها مع الشفة العليا، وحدثت نفسها :

ـــ ترى ! ما يفعـــل خطيبـــي بهاتين الشفــــتين الناضجـتين، لو أنـني لويت شفتي لأصبغهـا بالأحمر في حضوره.

ابتسمت فاشتد ألق ثغرها، وخطرت لها جارتها أمل، التي كانت تتقن الغواية، فتهدل شفتها السفلى وهي تحادث الرجال، فتخيلتها ثانية في مكتب محب، وقد التقت شفاههما بقبلة فاجرة، أججها استهتار جارتها، وعنفوان محب الرجل الغني الخبير بادواء النساء، فاذا القبلة عناق طويل.

ظهرت رجاء في طرف الصالة، راجعـة إلى طاولـة خطيبها، وحدثت نفسها في الطريق:

ـــ ترى ؟؟ كيف يجدني محب إذا رآني الآن، سأروق في عينيه كثيراً، وأصبح حسرة في قلبه.

ماست بقدها، عندمـا اقتـربت من طاولـة محب، واختلست نظرة نحو مقعده، فلم تره، فقدرت وجوده على الحلبة، فأسرعت تستنهض خطيبها إلى الرقص، وما كادت الحلبة تضمهما معاً، حتى أسلست قيادها لخطيبها، ولكنها

بقيت متحفزة، تتلفت باحثة عن محب، متمنية وجوده بين الراقصين، حتى يتسنى لها مشاهدته.

لم تجرؤ على أن تسأل خطيبها عن محب، فبقيت ترقص صامتة، باحثة، متوقعة أن ترى بين برهة وأخرى، وجهاً شيطانياً، بعيون ماكرة خداعة، يضم جسد رفيقته برغبة أثناء الرقص، ويهمس في أذنها داعياً إياها إلى زيارته في واحدة من شققه التي لا حصر لها، ولما لم تر مثـل هذا الوجه بين الـراقصين، خاب فألها، وفتـــرت حركتها، فشعـــر سليم بإضمحلال رغبتها، فسألها الإنسحاب من الحلبة، ثم غادرا الصالة متجهين إلى بهو الفندق من أجل الإنصراف.

تخلف سليم خطوتين عن خطيبته ليدفع الحساب، وكانت رجاء مهتمة بلف كتفيها وزنديها بشال وردي اللون، قبل خروجها من البهو إلى حديقة الفندق عندما سمعت صوتاً ينادي خطيبها باحترام:

ـــ أستاذ سليم، هذه مصادفة سعيدة أن نلتقي بك خارج نطاق عملك.

وسمعت خطيبها يرد ببشاشة :

ــ أهلا بالسيد محب ، هذه مصادفة سعيدة لي ، لأن أعمالك أوسع من أعمالي .

أدركت رجاء من الحديث وجود محب على بعد خطوات منها ، وعرفت أن خطيبها يصافحه الآن ، وشعرت باشمئزاز للوهلة الأولى ، ثم بخوف من التعرف على محب ، وحارت في أمرها ، أتنضم إليهما لتراه عن قرب ، ويراها بدوره ، أم تبتعد حتى لاتسوء سمعتها ، فجذبها خطيبها من يدها ، قبل أن تحزم أمرها ، فالتفتت لتبصر الرجل الذي كرهته على السمع دون أن تعرفه ، والذي أثار فضول المرأة رغبتها في أن تلقاه .

قال الأستاذ سليم باقتضاب :

ــ خطيبتي الآنسة رجاء مدرسة في الثانوي ، السيد محب من كبار المقاولين .

تمالكت رجاء نفسها ، فنظرت إليه بأنفة ، وأهملت ضم شالها لينزاح عن كتف وزند ، ونظر محب إليها متحدياً بطيش واضح .

حدقت في وجهه ، تريد أن تستشف خبثه من ملامحه ، وحدق محب بوقاحة في عينيها ، وعنقها ، وزندها العارية ، وفي كل عضو من أعضائها ، كساحر يروم سحر صبية ليغويها ، لترافقه إلى مصيرها السيء المحتوم على يديه .

وجدته رجلاً قوي الشكيمة ، يملأ وجهه شارب عريض يخفي بعضاً من شفته العليا ، ويبتسم بمرح ، وخيل لها ، على مدى برهة قصيرة ، أنها عرفت هذا الوجه من قبل ، ثم استبعدت الفكرة .

ظل محب صامتاً يتأملها ، وشعرت رجاء من اهتمامه الكبير ، الذي ارتسم على وجهه ، أنها وقعت في نفسه موقعاً حسناً ، فقررت أن تستمتع بغريزة الأنثى عندما تتلقى اهتمام شخص مرموق ، ويكون لها الخيار في صده ، فازداد إهمالها لطرفي الشال ، الذي انزاح وتعرت الكتف الثانية ، وبان زنداها الملفوفان عند أبطيها ، بصياغة جمالية عجيبة . كانت رجاء مصممة أن تثير محباً ، نكاية بمكره بغيرها من النساء .

شعر سليم بحرج للوقت الذي ضاع في صمت تام ،

دون أن ينطق أحدهما بكلمة ، وكأنهما يعرفان بعضهما بعضاً في الماضي البعيد ، فلم يخف عدم ارتياحه بل سألها بصراحة :

ــ ما بالكما صامتين ، أتعرفان بعضكما بعضاً من قبل ؟؟ .

ابتسمت رجاء باعتزاز وقالت غامزة من جانب محب :

ــ لا لم نلتق قبلا ، ولكن سمعة صديقك السيد محب تسبقه إلى الآذان .

شعر محب بجفاء جوابها ، فابتسم ورد مجاملاً :

ــ تشرفنا بمعرفتك ياآنسة رجاء ، لقد أدهشني أن يكون خطيبك الأستاذ سليم على مثل هذا الذوق الرفيع في انتقائك ، وهو المحامي البارع الذي اشتهر باهتمامه بالقوانين وحدها .

سر الخطيبان من عبارة محب اللبقة ، فابتسما معاً ، ومدت رجاء يدها لتصافح محباً وتنصرف ، ففاجأها محب بانحناء على يدها ، وقبّل ظاهر كفها بفمه الحار ، ودغدغ بشرتها شاربه العريض ، فسحبت يدها بخجل ، وتوردت وجنتاها فقال محب :

ــ أرجو الصفح على هذا الإحراج ، إنني أنسى نفسي أحياناً ، وأمارس عادة تعلمتها في باريس ، هيا نحتفل بخِطبتكما ، هذه مناسبة سعيدة ، هذه أسعد مناسبة في حياة الإنسان ، تستحق أن يوليها الأصدقاء والمعارف أهمية بالغة .

حاول سليم أن يتملص من الدعوة ، فقدم حججاً كثيرة ، ولكن محباً قاطعه قائلاً :

ــ لا قيمة للوقت لمن يريد أن يحيا حياته ، متمتعاً بكل دقيقة من دقائقها تعالا معي ، لقد قررت أن أنهي مع خطيبك قضية الدعوى التي يخاصمني فيها مرغماً كمحام ، لنظل صديقين ، سننهي الدعوى في لحظات لصالح موكلك ونوفر على أنفسنا الوقت والجهد .

بقي الأستاذ سليم مصراً على موقفه الرافض ، على ما في حديث محب من إغراء له بكسب القضية بسهولة ، فقد خشي من تردد خطيبته ، فنظر إليها يسألها رأيها إزاء إصرار محب ، ولاحظ محب هذا الموقف من سليم ، فالتفت إلى رجاء وقال برقة بالغة :

ــ آنسة رجاء ، اسمك رجاء ، ورجائي إليك أن تحسمي

الخلاف بيننا وتقبلي دعوتي إلى فنجان قهوة، في حديقة الفندق، ربما ننهي موضوع الخصومة بيني وبين خطيبك.

أدركت رجاء بغريزتها حرص محب على توطيد علاقته بهما، وتبينت رغبته في مجالستها على طاولة واحدة، ليبدأ لعبته الماكرة كصياد نساء، فأبت نفسها تصرفه وقالت معتدة:
ـــ لا مانع عندي أن تنفرد بخطيبي لإنهاء القضية..

بردت حماسة محب للقاء خطيبها وحده، ولكنه صار مجبراً، حتى لا ينفضح أمره، وشعرت رجاء وهي تتابعهما مبتعدين معاً، أنها آلمته بهذا الحل، وأن سحابة من العذاب الشديد، اطفأت بريق ابتسامته، فعاتبت نفسها برهة.

○

إنفردا معاً سليم ومحب إلى طاولة فوق رصيف الفندق، بينما كانت رجاء تتجول في الحديقة قريباً منهما، وما يزال ظاهر كفها، يتحسس من فمه الحار ومن دغدغة شاربه العريض، حتى أنها حكته بظفر بنانها أكثر من مرة.

شربا القهوة معاً، وتحدثا معاً، وسمعت رجاء ضحككهما المشترك بصوت عال، كصديقين حميمين، فاستغربت رجاء أقوال خطيبها طوال السهرة في حق محب، ولكنها تذكرت المرأة التي كانت تجلس إلى جانبه، والنساء اللواتي كن من حوله، وسعيه إليها قبل قليل، وتمنت لو كانت حرة غير مخطوبة، إذن لأتيح لها مجال ترويضه، وإخضاعه لها وحدها زوجاً عاقلاً شريفاً.

نظرت في اتجاه الطاولة التي يجلسان إليها، فرأته يتابعها من بعيد، وصارت ملامحه واضحة في ذهنها، فلم تجد شبهاً بينه وبين محب الذي عرفته ذات يوم. والذي كان شاباً نحيلاً يملأ شعر غزير ناصيتيه، ويرطن لسانه بلكنة الصبي المدلل.

نهض سليم ومحب مبتعدين عن الطاولة، بعدما تم الإتفاق بينهما، فاقتربت في اتجاههما، ولم تكد تصل إليهما حتى وصلت المرأة التي كانت في رفقته طوال السهرة.

رفعت رجاء رأسها مستنكرة قدومها، وسكنت على بعد خطوتين، فقد عز عليها أن تقف إلى جانب تلك المرأة

التي حكمت رجاء عليها **حكماً** مبرماً ، **منذ ابتداء السهرة** ، لأنها في رفقة محب ، وتوقعت أن يتسلل أحدهما إلى غرفة الآخر في الفندق ولكنها فوجئت بمحب يقدمها قائلاً :

— سميرة المنير ، ابنة خالتي .. الآنسة رجاء خطيبة الأستاذ سليم .

ارتاحت نفس رجاء دون أن تعرف سبباً لارتياحها ، فخف تشنجها إزاء محب ولامت نفسها على ظنونها القاسية ، فانفردت مع سميرة مستأنسة بوجودها .

التقت نظرات الامرأتين ، وابتسمتا ، وبدأت كل منهما ، توازن شخصيتها مع الثانية ، كانت سميرة أمشق قامة ، وأشد نحولاً ، بينما ظهرت رجاء أنهد صدراً وأجمل محيا ، أما من حيث الأناقة ، فقد ارتدت رجاء ثوباً بسيطاً ينحسر عن النحر حتى ربا النهدين ، بينما ارتدت سميرة ثوب سهرة جميل ، مصنوعاً من قماش مفرغ ، ومبطن بستر شاف ، يشف عن كتفيها وصدرها وظهرها ، وتزينت بقطع من الحلي في أكثر من موضع .

لم تجد واحدتهما سبباً يدفعها إلى الحذر من الثانية ،

فتكلمتا معاً ، وكانت رجاء راغبة في **معرفة** أوسع تفصيل عن أوضاع سميرة ومحب العائلية ، فصار الجو ودياً على نحو لم تكن تتوقعه ، وصار مثله بين خطيبها ومحب ، بعدما فرح خطيبها بكسبه قضية موكله ، وقالت سميرة ببساطة :

— صار شراب التوت الشامي جاهزاً على الطاولة ، ومازال أبي ينتظر رجعتك مع ضيوفك طبعاً .

دهشت رجاء إزاء الفارق الكبير بين الصورة التي أوحى بها خطيبها ، والواقع الذي لمسته الآن ، فأب سميرة موجود مع ابنته ، وكان معظم الحضور من أقرباء محب .

قال محب :

— أبو سميرة ، زوج خالتي ، ولوع بشراب التوت الشامي ، منذ طفولته وقد حمل ولعه واهتمامه بالتوت إلى فندق بلودان ، فهو يسعى منذ الصباح الباكر إلى تأمينه طازجاً من شجر التوت في الحقول .

فرض الجو نفسه على رجاء وخطيبها سليم ، واطمأنت نفساهما ، فمشت رجاء مع سميرة ، ورافق سليم محباً ، عائدين

إلى صالة الفندق ، إلى **الطاولة** الكبيرة التي ظلت رجاء تختلس النظر إليها وترهبها طوال سهرها ، وها هو الرجل الذي أعلنت عن كرهها له أكثر من مرة في ليلة واحدة ، قد صافحها ، وقبّل ظاهر كفها ، ومازال يتحداها بنظراته ، وهاهي قد شاركته طاولته البغيضة في الليلة ذاتها .

وقف محب وبيده كأس مترعة بالشراب ، وبيد كل من الحضور واحدة أيضاً وقال وهو ينظر إلى عيني رجاء لناعستين :

— سنشرب التوت الشامي على شرف خِطبتكما .

واسترسل في إعادة قوله السابق :

— هذه مناسبة سعيدة ، هذه أسعد مناسبة في حياة الإنسان ، تستحق أن يوليها الأصدقاء والمعارف أهمية بالغة .

ضغط محب على الكلمات ، ولفظها بمشقة وعذاب ، حتى خيل إلى رجاء أنه يتحدث عن نفسه ، وأنه يعنيها بكلامه ، ويتمنى خطبتها لنفسه ، فتساءلت وهي مأخوذة من هول السؤال :

— هل **يمكن لهذا** الرجل الثري الجريء المنحط المخادع ، أن يكون هو نفسه محباً ، الفلاح الساذج البسيط الطاهر الصادق ، الذي تقدم إلى خطبتها ذات يوم ، بأسلوب عفوي ، ضاع جدّه في سخف هازل ، وهزل سخيف .

كانت رجاء مرتاعة من السؤال ، ومشتتة النفس في البحث عن اليقين أو الشك عندما وقع حادث مفاجىء وغير مسوّغ ، فيه الكثير من الصفاقة والرعونة ، فقد قذف محب كأسه والشراب إلى الأرض ، وهرول مبتعداً عن الطاولة دون كلمة توضيح أو اعتذار للضيفين .

نظرت سميرة وامرأة أخرى بقسوة إلى رجاء ، وتطلع أبوها بدهشة ، وانقلب الجو وصار مشحوناً بالكره والتباغض ، فوضعت رجاء كأسها على الطاولة ونهضت وأسرع سليم فأمسك بيدها ، وابتعدا مسرعين خارج الصالة .

○

ركبت رجاء الباص مع خطيبها ، من أجل عودتهما إلى

دمشق ، وكان الباص ينتظر أمام الباب الخارجي للفندق . فجلس الخطيبان متجاورين ، وبقيت رجاء صامتة طوال الطريق ، واحترم سليم صمتها ، حتى أوصلها أمام عتبة دارها في منطقة المزة . فقال لها بصوت مكتوم ـــ تصبحين على خير ـــ وردت رجاء بصوت خافت ـــ وأنت من أهله ـــ . وابتعد سليم ودخلت رجاء الدار .

استلقت رجاء على السرير ولم تنم ، كانت تستعيد في ذهنها ، ما جرى لها قبل تسع سنوات مضت ، عندما كانت أسرتها تقطن في منطقة المزرعة .

ـــ أتراه محباً نفسه ، صار رجلاً متين البنيان ، وصار غنياً ؟؟.. وإلا ما سبب معاملته لها بهذا الأسلوب !!.. أيعقل أن يهين صياد النساء امرأة بحضور خطيبها ، لأنه اشتهاها ؟؟.. أتحب امرأة رجلاً أهانها ووضعها في ظرف حرج ؟؟..

نفت رجاء الوقائع التي تساءلت عنها ، وجزمت أنه محب نفسه الذي عرفته في صباها .. لأن أحداً غيره لا يحق له أن يسيء معاملتها .

انبثق الفجر ، واستأنس النهار ، وسمعت رجاء ضجة

العربات في الشارع ، ومازالت ساهمة ، تفكر في محب ، وتفكر في ورطتها مع خطيبها ، فكيف ستسوّغ سلوك محب معها دون أن تقر بمعرفته من قبل ، وكيف ستعلل كذبها في الفندق ، إذ أنكرت معرفته ، عندما لاحظ خطيبها رابطاً خفياً كان بينهما في الماضي ، حتى أنه سألهما معاً بصريح القول «أتعرفان بعضكما من قبل» .

كيف تستطيع رجاء بعد إنكارها الواضح ، أن تحدث خطيبها عن العلاقة الساذجة التي جمعت بينهما ، وهل يصدق خطيبها أقوالها ، وهو الذي كان يحدثها طوال السهرة عن مباذل محب مع النساء .

لم تطمئن نفس رجاء إلى مصيرها المقبل ، بل بقيت مشغولة الفكر ، واجمة القلب ، تبحث عن حل تهتدي إليه للمشكلة .

أما محب ، فبعدما غادر الطاولة ، ابتعد وحده إلى أقصى مطرح في فندق بلودان الكبير ، حيث يشغل المسبح مساحة واسعة ومتوسطة بين ممرات مرصوفة تحيط بها أرض عشبية .

تمدد محب **فوق العشب الأخضر** ، وكان المسبح مقفراً ، فالوقت متأخر ويكاد الصبح أن يتنفس ، وظلت رجاء تملأ عينيه ، إنها رجاء ذاتها ، التي هام بها في مقتبل عمره هياماً ملك عليه أنفاسه ، وكاد يتلف روحه .

لقد تبين ملامحها من النظرة الأولى ، فعرف في هذه المرأة الناضجة المخطوبة إلى سليم ، حبيبة قلبه ، وحلم صباه ، عرف فيها الصبية الحسناء الكاعب التي توله قلبه بها ، قبل تسع سنوات مضت .

لام نفسه على تصرفه الأخير الأرعن في حضورها ، فلو أنه ضبط أعصابه لكان له شأن آخر معها ، ولانفسح المجال أمامه ليوطد علاقته بها ، ويستهويها فتعشقه فيعوض مافاته في صباه ، ويملك الخيار في أن يتخذها زوجة حلالاً له ، أو يتنكر لها فيذيقها العذاب المر الذي أشقاه ، إذ نبذته واتخذت لها في الحياة سبيلاً .

نهض وألقى جسمه في المسبح ، فابتلت ثيابه ، وشعر ببرودة الماء ، فسبح وقطع المسبح مراراً ، دون أن يخشى الغرق ،

كما جرى له ، عندما ألقى **نفسه في** النهر **شاباً يافعاً** ينوي الإنتحار ، بعد فشل حبه الأول .

غادر محب المسبح ، وثيابه تقطر ماء ، كما قطرت ثيابه ، عندما جرته أمه من النهر عائدة به إلى المنزل ، ودخل غرفته في الفندق ، وبدل ثيابه ، واستلقى على السرير ، وتذكر أمه وأباه ، وتذكر طفولته .

- ٢ -

عودة إلى الماضي

كان فهيم الراعي أبو محب ، فلاحاً من عائلة ذات أصول عريقة في غوطة دمشق ، وكان للعائلة الكبيرة حقول واسعة ، ولكن حقول الأسر الواسعة في الغوطة ، تتجزأ حسب عدد الأولاد الذين يتوازعون التركة بعد وفاة المرحوم والدهم ، وتضيق الأجزاء مع الأيام أو تتسع ، حسبما ينشط وريث في العمل ويقتصد في الصرف ، أو يهمل أرضه ويبذر ماله .

لم يرث أبو محب أرضاً ذات شأن ، لأن أباه أسرف كثيراً ، فاضطر فهيم الراعي إلى الزواج من امرأة تكبره بعدة سنوات ، هي نعيمة السروجي التي ورثت حقلاً متوسط السعة عن أبيها ، فوضعت الحقل تحت تصرف زوجها .

كان الحقل ذات يوم ، يبعد عن المدينة ، ولكن امتداد

العمران على مدار السنين قرب الحقل إلى مناطق السكن، فصارت أسطحة المنازل ترى بوضوح وصار قرب الحقل من أسواق المدينة، يؤمن أسعاراً جيدة لمحصوله المنوع على مدى أربعة فصول، لكن قرب الحقل من البيوت، جعله في الوقت ذاته محط أنظار المتنزهين، الذين اعتادوا قضاء النزهات في الحقول القريبة من مساكنهم، وجعله ملاذاً للطلاب الكسالى والمجدين في أيام الربيع، يدرس المجدون قرب سواقيه، ويلعب الكسالى بين جنباته، ويتسلقون أشجاره.

اعتاد أبو محب أن يضع قطاف حقله على ظهر حماره، ويتجه إلى سوق «شيخ محي الدين» ليبيعه هناك، أو يتجول مع حماره بين الحارات في منطقة الجسر الأبيض، وعرنوس والسبكي.. منادياً على بضاعته، ملفتاً أنظار زبائنه من الرجال وربات البيوت، ليطلوا عليه من النوافذ، أو ينتظروه خلف الأبواب.

وبقدر ما كان أبو محب يرضى عن الإيراد الحسن الذي يحصل عليه، كان ينتابه الغضب، عندما يعود إلى حقله، ويشاهد الأضرار التي خلفها المتسكعون أو المتنزهون وراءهم،

فيشتم آباءهم وأجدادهم، ويعاهد زوجته نعيمة على صيانة الحقل، برفع سور عال حوله، حتى لا تطأ قدم غريبة أرضه إلا بموافقته.

بدأ أبو محب يقتنص الوقت ليعمل في بناء السور، ولكنه لم يجد الفراغ الكافي لإتمامه، فأقام جداراً في جهة من الحقل، وثبت سياجاً في جهة ثانية، وانشغل عن السور بعقم زوجته التي لم تلد له سوى محب وضاعت أثمان الأدوية، وزيارات الأطباء سدى، وتبدّدت الآمال.

شب محب وحيد أبويه مدللاً، فترك المدرسة بعد نيله الشهادة الابتدائية، وصار يساعد أباه في أعمال الحقل، ويرافقه أحياناً إلى بيع المحصول، وحاول أبوه أن يتم السور، ولكنه شكا فجأة من علة كبدية أثرت كثيراً على صحته، ثم اشتد المرض فأعياه، فلزم الفراش، فقاسم محب أمه أعمال الحقل والإعتناء بأبيه، واختص وحده بتسويق الفاكهة والخضار.

احتفظ أبو محب بشرواله وقمبازه، ولكن محباً خلع الشروال منذ كان طالباً في المدرسة، وارتدى البنطال، لكنه

بقي يلف رأسه بـ « السُّلك » . واشترى محب بيجاما للصيف من الحرير ، وأخرى للشتاء من الفانيلا المخططة ، وحافظ على ملابسه الداخلية العريضة التي كانت تصنعها أمه له من الخام الملون بألوان فاقعة .

ما برح اقتراب الحقول يبدل من طباع أهلها وعاداتهم ، فقلد أغلبهم سكان المدن ، فصارت بيوتهم تضم وسائل عصرية ، توضع في غير مكانها ، فتصدرت الغسالة الكهربائية قاعة الإستقبال في بيت محب ، وكانت تملأ بالفاكهة أحياناً ، ووضع فوقها طبق من القش الملون ، ووضعت على الرفوف مجموعة من زجاجات العطر ذي الرائحة النفاذة ، وأوراق الختمية ، وعرانيس الذرة المجففة ، وطاس الرعبة النحاسي بطلاسمه الفنية الرائعة ، وعدد من الصحون المذهبة من البورسلين الصيني الفاخر .

أحس أبو محب بدنو أجله ، فنادى زوجته وابنه ، وطلب منهما أن ينقلا سريره إلى قرب النافذة ، ليشاهد الحقل ، فرأى أسطحة المنازل القريبة ورأى سور الحقل ناقصاً ، فشعر بخوف على ابنه من المدينة ، فقال لمحب :

ــ أوصيك خيراً بأمك يا ولدي ، وانتبه إلى حقلك ، سوره من أربع جهاته ، تأمن شر أشرار المدينة .

ولم يمهل المرض أبا محب ، فأسلم الروح بعد عدة أيام ، تاركاً زوجته المسنة ، وفتى يافعاً ، يعمل فلاحاً في الحقل ، ويخجل حين يصادف رفاق المدرسة القدامى في وقت النزهة ، أو عند بيع الخضار على الحمار .

○

ورث محب أعمال الحقل عن أبيه ، ولم يصلب عوده ، فصار يمارس عمله كهاو ، يتقنه أحياناً ويضيق به أحياناً ، ولاحظت الأم جهود ابنها المضطربة ، فلم تدع فرصة إلا ولامته على تصرفه ، فحيره عتابها عندما يهمل ، وشفقتها عندما يجدّ .

قالت والدته مرة :

ــ لِمَ أغرقت الزرع بماء غامر ، كان يكفيه ترطيب التراب .

ــ ولكني سقيته ياأمي ، ولم أدعه ليجف .

وطوفه بالماء مرة ثانية .

وشاهدته يشذب الأغراس بعد عودته من المدينة فقالت :

— أنت تعب يا ولدي .. عد إلى المنزل واسترح سنقوم بهذا العمل غداً .

— سأغرس غداً شتول البندورة التي اشتريناها منذ يومين ، حتى لا تتلف عاجلاً .

— سألتك أن تغرسها حين أتيت بها ، لكنك استمهلتني ، أرأيت سوء تدبيرك .

رد محباً منتهراً أمه :

— «كرمال الله» .. دعيني أعمل واذهبي وشأنك .. لم أرغب في العمل البارحة ، أشعر بنشاط في هذا اليوم ، إنني ملهم منذ الصباح ، وسأعمل على ضوء المصباح حتى ينتصف الليل .

أجابت أمه وقد أولته ظهرها :

— لم أعرفك عاقلاً في حياتك .

كان يخطىء محب ، ولم تفوت أمه فرصة خطيئة واحدة ، إلا لامته من أجلها ، ولم يشعر محب مرة بخجل من أغلاطه ، ولذا كان ينفذ رأيه دون تراجع ولم يكن يؤلمه أن تظهر النتائج عكس تصوراته ، بل كان يؤلمه أن يتخلى عن قراره بعد تقريع أمه .

وقعت مشادات عديدة بين محب وأمه ، اقتطعت وقتاً من حياتهما وخاصة قبل النوم ، فبكى محب تحت لحافه غاضباً ، وبكت أمه وراء باب غرفته مسندة جبينها إلى الحائط .. كان كلاهما موقناً من حب الآخر له ، ولكن عذاباً جميلاً ، قام بينهما ، إنها لا تستطيع أن تكف عن إسداء النصائح ، ويعجز محب أن يكبت رغبة ولدت في صدره .

اكتسى حقل محب بسمات غريبة وصارت مساكب البقول متقنة الزرع ، لأن محباً يستظرف أزهار الفول ، بينما ظهرت مساكب البراصيا مشوشة ، لأنه يكره رائحة نبات البراصيا ، فلم يضرب في ترابها منكاشاً ، ولم يمسك من أجلها مجرفة .

○

تابع محب بعينيه ما تم من تصوين الحقل ، وشاهد السور الذي لم يعد محتاجاً إلى جهد كبير ، ليحيط بالحقل كالسوار حول المعصم ، ونظر في اتجاه المدينة مرسلاً بصره في الدروب المتعرجة التي كانت تفصل بين البساتين .. لقد عاد الربيع .

حوم النحل ، ورف الفراش الملون ، ورجع السنونو .. لقد عادت الظروف ذاتها الى المكان نفسه ، ولا يحتاج محب إلى ذكاء ليخمن حلول موعد النزهات .

عاد الربيع .. وتعلم محب من السنوات السابقة ، أن الوقت قد حان لعودة الفتيان والفتيات ، الذين يتبادلون الحب بنظرات مشوقة ، وبسمات واعدة مطمئنة ، وحين يتم لقاء تتورد الوجنات ، ويعثر اللسان ، ويمر الوقت المقتنص الضيق بغزل العيون والصمت ، وينتهي اللقاء بوعد إلى لقاء ، أو خصام لا لقاء بعده .

كان منظر الفين وهما يتنزهان في أفياء الحقول مألوفاً لعيني محب ولطالما ألقت شمس الأصيل ظلهما عند عتبات

السواقي ، متسللين إلى عب شجيرة البيلسان محتميين بفروعها عن الأنظار .

تجول محب في حقله ، حيث كان يشاهد المراهقين من جيله .

لا شجرة .. لا نصبة .. لا خشبة .. خلت من أحرف الأسماء ، هي اسماء الصبايا ، كانت محفورة فوق الشجر ، وكان إلى جانبها أسماء الشباب وتواريخ السنين البليدة التي مرت على حفرها ، ولم تخلف سوى تلك النقوش في سوق الأشجار ، حتى صارت الأشجار كخزائـن عتيقـة مزخرفـة ، وبقيـت الأشجار تنتظر همس حبيبين يتفيآن ظلها ، ويدونان اسميهما عربون بيعة صادقة .

تأمل محب منظر الجوزة الهرمة .. لم يكن في جذعها الواطىء ، موضع شبر إلا وظهرت فيه نقوش الأسماء التي ربط بينها الحب فطوقها رسم القلب ، وكان بعضها محفوراً بخط جميل .

حدث محب نفسه :

ـــ ما أقرب منظرك أيتها الشجرة إلى امرأة عجوز ، تلذ لها رؤية المداعبات بين المحبين .

تطلع إلى فروعها الممتدة ، وكانت أزهار الجوز الخضر ، متدلية من أطراف الأغصان ، كقروط في آذان الغيد ، فعاد ببصره إلى ساقها وتساءل :

ـــ أيذكر أحد منهم المناسبة التي جعلته يحفر اسمه في قشرك ، ألهذا الجرح الذي يندى في جذعك ، فجر كل صباح ، صدى جرح في قلبه .. ؟ أم مسح النسيان الأسماء من الذاكرة ، ولم يبق سوى أشلاء ذكريات تحفظينها وحدك ؟

قرأ محب الأسماء من الشجرة بصوت مرتفع ـــ قمر هالة غسان سعاد . وعندما مل من القراءة ، ابتعد عن الشجرة ، واستلقى فوق العشب ، وأغمض عينيه ، يسترجع صور الأشخاص الذين كانوا يفدون إلى حقله .

كان انطباع الصدرية السوداء ، والقبة البيضاء واضحاً في خيال محب . حيث أن أغلب الوافدات من الطالبات ، وكن يجئن بلباس المدرسة ، وبين أيديهن كتاب ، وكان محب يلاحظ

فائدة الكتاب ، **إذ يستغرقن في قراءة** أسطره كذباً ، ريثما يمر ثقيل ظل أو جار خناس ، أو يستخدمنه لإخفاء الرسالة المرسلة إلى الحبيب ، أو العائدة جواباً على رسالة سابقة .

آنس محب في نفسه ، مع قدوم ربيع هذا العام ، ميلاً إلى الإستغراق في أحلامه ، فبقي مستلقياً على العشب ، وتطلع من مكانه إلى سور الحقل الناقص وكان شعوره واضحاً آنئذ ، يدعوه إلى ترك السور على حاله ، ويمنعه من إقفال حقله في وجه المتنزهين .

حميت الشمس فوق جسم محب ، فاشتدت صبوته إلى رؤية المتنزهين وتمنى لو يحل يوم العطلة سريعاً .

○

حل يوم العطلة أخيراً .. واحتار محب إزاء العدد الكبير من الناس الذي دخل إلى حقله ، وعقد حلقات سمر تحت الأدواح ، وتنازعت رغبتان نفس محب : دعته الرغبة الأولى إلى

الحفاظ على موسم حقله، وإرضاء أمه، وأغرته الثانية على مسايرة المتنزهين واختلاس النظر إلى فتياتهم.

كان منظر الصبايا، وهن متربعات على العشب جميلاً، وكان مرآهن وهن مختالات بين أزهار المشمش لطيفاً، فتابعهن محب بنهم، ولاحظ أن لبشرتهن تأثيراً عجيباً عليه، لم يعهده في نفسه من قبل.

أعجبه مشهد بنتين أمسكتا بحبل طويل، كل واحدة منهما في طرف بينما كانت بقية البنات تحاول الوثوب عبر الحبل، وكلما عثرت واحدة منهن بالحبل أثناء مرورها، استبدلت دورها بمكان واحدة من الاثنتين اللتين كانتا تديران الحبل بحركة رتيبة.

أطال المكوث قربهن، وكانت عيناه تتجهان غصباً نحو أفخاذهن الشهية، ولاسيما حين يثب الثوب بقفزة طائشة، أو عندما يعلق الحبل بين الساقين ويرفع الثوب بوقاحة فوق الوركين.

سمع محب أمه تخاصم جماعة من المتنزهين، فابتعد عن

وجهتها حتى لا ينضم إلى الخصام، وتابع جولته في الحقل فشاهد صبية، كانت تحاول قطع الساقية من طرف إلى طرف، وكانت مرتبكة، وزاد في ارتباكها صوت أمها الرتيب الذي كان يناديها من بعيد — رجاء.. رجاء.. عجلي يا رجاء —

لم تجد الصبية مطرحاً سهلاً يناسب قدرتها على القفز، فانتقلت إلى مطرح آخر من الساقية، وبقيت مترددة تخشى من السقوط في الماء.

راق لمحب تثني قدها، بين مد الساق ومحاولة الوثب، ثم قرر أن يساعدها، فخاض في الساقية، ومد ذراعه أمام وجهها، لتتكىء عليه وتثب. أمسكت الصبية زنده، ومايزال الخوف يسيطر عليها، فوثبت واضطربت وكادت تقع، فتشبثت بقوة بعنقه.

عرف محب أمه، وعرف عدداً من قريباته، وشاهد النساء في الحقل، ولكنه لم يخبر تجربة مثل هذه من قبل، ولم يكن لديه أي تصور مسبق لجسد الأنثى. فراعه تأثير شعرها

عندما لامس وجهه، وهاله عبق عرقها عندما تنسم رائحة عبها، فامتقع وجهه، وخفق قلبه، وارتبكت حركاته، وابتعد ذراعاه عنها، ولم يدرِ ما التصرف اللائق، فأطرق برأسه وابتعد مسرعاً كأنه ارتكب ذنباً.

تفتح إحساس ناعم في بدنه، وأرعش نبضان رفيق خلاياه، فاتجه محب إلى عرزال صغير في الحقل، كان مبنياً من قضبان الأشجار الغليظة اليابسة ومن فروع الأغصان.

دخل محبٌ في العرزال، واستلقى على كومة من العشب اليابس، وراح يراقب السماء من فتحات مبعثرة في السقف، ليشغل ذهنه عن الشعور الذي ما برح ينتابه، ففشل في تهدئة خاطره، وظل لقاؤه بالصبية وضمها ينشيه بلذة سحرية.

حدث محب نفسه:

— لم آنس في الوجود أطرى ولا ألين مما مسته يداي.. ألفتيات العالم كلهن ذات الملمس الناعم والجسد الطري ؟؟

استعاد محب في مخيلته منظر نحرها الجميل، عندما

كانت يداها تحيطان بعنقه، ويتكىء نهداها المكوران فوق صدره، واستعاد نشوة إحساسه بفخذيها، وهما يحتكان بأطراف جسمه، ويسترخي بطنها اللدن على بطنه.

تنهد وتمنى:

— ليتني أضم تلك الصبية مرة ثانية.

عاد محب مسرعاً إلى الحقل، يفتش بلهفة قرب السواقي، لعله يجد صبية غيرها بحاجة إلى مساعدته فيهرع إلى عونها.

○

بينما كان محب فرحاً بعشرة المتنزهين، ومتابعة الصبايا بعدما اختبر طراوة أجسادهن، كانت أمه متضايقة من تصرفاتهم، فقد أرهقتها ملاحظة الصغار، ومشاحنة أوليائهم طوال النهار.

غابت شمس يوم العطلة، لكن أثر ذلك النهار، ظل طويلاً في نفسيهما وخلف ذيولاً لم تنته دون عناء.

افتقد محب إنساناً يحدثه بقصة الصبية ، التي ضمها صدفة فوق الساقية وكانت في عرفه أعنف من نظرة الغرام الأول ، فبقي يتقلب في سريره طوال الليل ولم يغمض جفنه برهة ، حتى يأتيه الحلم الجميل ، وتطل الصبية عليه من بين أزهار المشمش ، بوجهها الصبوح ، وقدها المياس ، وصدرها الناهد .

وافتقدت نعيمة زوجها ، عندما واجهت المشاكل ذاتها ، فرددت أقواله وهي تبعد الصغار عن الزرع ، وتلوح بالمنجل أمام وجوههم صارخة بحدة :

— يجب تصوين الحقل ، إنهم كالجراد .

ولم يكد ينقضي الليل وتشرق شمس الغد ، حتى أسرعت نعيمة إلى تذكير ابنها ، بوصية والده ، وأمرته أن يهتم بإتمام السور قبل حلول يوم العطلة القادم .

نهض محب وتناول إفطاراً خفيفاً ، وكان محتاراً بين دافعين ، فهو إما أن يلبي رغبة أمه ويتم السور ، ويتنكر لإحساسه ، أو يتملص من إتمامه مسايراً شعوره الفرح بلقاء المتنزهين وإقامة علاقة طيبة مع واحدة منهن .

أصرت نعيمة وظلت واقفة قبالته تستحثه ، وعرف محب أن أمه ستلح عليه ولن تصمت حتى ينجز السور ، فشعر بتمزق بين نزوعه وتشبث أمه . نظرت إليه ونظر إليها كعادتهما قبل كل خصام ، وكاد محب أن يخبرها برفضه ، ولكنه استدرك قائلاً :

— أفضل أن أنكش تربة الزرع في هذا اليوم ، ألا يمكننا الإنتظار إلى الغد ؟

أجابت نعيمة بصوت حانق :

— إنني لا أطلب منك عملاً وتقضيه لي ، سأستعين بغيرك .

تشنج حلق محب بغصة كورت حبال صوته ، وشعر بقنفذ شائك يتدحرج فوق أعصابه ، فصرخ من أعماقه بصوت باك :

— اللعنة على السور ، سأتمه وأترك الحقل لك وحدك . كلما كبرت ازددت حرصاً ، وازداد لسانك حدة .

حمل محب مرغماً الأدوات اللازمة ، وسار في الحقل

متجهاً نحو طرف السور ، فلامست ضفدع كانت تثب بين العشب جلد ساقه ، فارتد كأن مساً كهربائياً لامسه ، وشاهد الضفدع ساكنة قربه فامتعض ورفع حجراً ثقيلاً وأهوى به على الضفدع .

نقل ماء كثيراً ، وجبل تراباً كثيراً ، وأرهق نفسه كثيراً ، ومضى الأسبوع ولم ينجز محب السور كاملاً ، فقد أبقى فجوة عريضة بين جدارين في اتجاه المدينة ، تسمح للمتنزهين بالعبور إلى حقله .

كان محب في شوق إلى بزوغ فجر الغد ، بينما كانت أمه تفكر في خطة تريحها من مواجهة الناس . نزلت نعيمة الدرج وجلست قربه وقالت :

ــ مضى الأسبوع ، ولم تتم السور ، وغداً يوم عطلة ، يوم قدوم المتنزهين قم إلى الحقل ، وأغرق الحقل بالماء ، ليصبح موحلاً ، يتجنبه المتنزهون .

كان هذا الخاطر أبعد ما يكون عن رغبته ، فحدق في وجهها مستنكراً وقال لها :

ــ سنصبر غداً على قدوم المتنزهين ، وستكون المرة الأخيرة .

ردت نعيمة بحدة على عادتها ، كلما خالفها ابنها :

ــ إما أن تغرق الحقل الليلة أو أغرقه أنا .
ــ أرجوك ياأمي دعي الحقل مفتوحاً للمرة الأخيرة . . .

قالت بعصبية :

ــ إنه حقلي وأنا حرة التصرف به .

حملت نعيمة مجرفة ودفاً عريضاً من الخشب وفانوساً ، وخرجت إلى الحقل ، وكانت العتمة تخيم على كل شيء فيه .

نظر محب من النافذة ، ولم يشاهد شيئاً ، ولكنه تخيل أمه تثبت دف الخشب العريض في سرير الساقية ، محولة مياهها الجارية الى مساكب الحقل ، وتخيل حقله موحلاً مقفراً من المتنزهين ، فتفوته رؤية الفتيات ويفوته لقاء الصبية رجاء التي ضمها إلى صدره في الأسبوع الفائت ، وبقي ينتظر لقاءها أسبوعاً بطيئاً ممضاً .

تبع محب والدته إلى الحقل ، فشاهدها منصرفة إلى العمل بجد ونشاط كانت ممسكة بالمجرفة بعزم ترفع الحصى وتزيح التراب لتشق للماء سبيلاً إلى الحقل .

انزوى محب وراء جذع شجرة ومد رأسه متطلعاً إلى شبحها الضعيف ، بظهرها المحني ، وكيانها الذي راح يهتز بعد كل جرفة بالمجرفة . فأثر منظرها التعب في نفسه ، وكانت نعيمة تتوقع قدومه خلفها ، فتلفتت ولمحته قرب الشجرة ، فصارت تعمل وتئن أنيناً كريهاً .

نسي محب ما دار في خلده ، وقرر أن يتم العمل عنها ، فبرز من بين الأشجار مقترباً ، فرأته ، فازدادت توجعاً ، فانقلب الصوت من نغم كان يستدر رحمة محب إلى نشاز يورث الكآبة والضجر .

قال محب في عتمة الحقل :

ــ أمي .. هات المجرفة .

ومد يده ليمسك بها ، فدوى صوته بشعاً في أذن أمه ، ورأت ذراعه ممدودة ، واستطال ظلها ، وظله على ضوء المصباح

الخافت ، ففزعت من شبحه وأشباح الأشجار من حولها ، فتشبثت بالمجرفة وصرخت بعويل لا مبرر له :

ــ ابتعد عني .. ابتعد عني .

كررت نعيمة العويل ، كأن مساً أصاب عقلها ، فانتهرها محب قائلاً :

ــ أعطني المجرفة لأتم العمل بدلاً عنك .

صرخت نعيمة بعويل أشد من عويلها السابق :

ــ ابتعد .. أنت كذاب .. ستغدر بي .

حاول محب أن ينتزع المجرفة من يدها ، فتراجعت أمه إلى الخلف وسمعت نعيق بوم شق السكون ، فانتفض بدنها وأصيبت بهلع ، ورفعت المجرفة وهددت ابنها بصراخ عال :

ــ إياك أن تلمسني وإلا حطمت رأسك .

أمسك محب بطرف المجرفة وجذبها بعنف ، فتألمت أصابعها من عنف الشد ، وجذب محب المجرفة ثانية ، فأفلتتها وهجمت على ابنها مولولة :

ـــ اللعنة عليك وعلى أبيك ، **محقك** الله في أقرب وقت .

فقد محب وعيه ، ولم يعد يدري ، لـمَ كان يسعى إلى المجرفة ، فهجم بالمجرفة على لوح الخشب وراح يضربه نكاية بأمه .

أمسكت نعيمة بكتف ابنها ، لتزحزحه فلم تفلح ، فأمسكت بشعر ناصيته وشدته ، فكابد محب آلاماً قاسية ، فالتفت ودفع أمه دفعة قوية ، ألقت بها بين الزرع الموحل في مجرى الماء .

بكت نعيمة بصوت مرتفع ، وانتحبت نحيباً شديداً ، فلم يتمالك محب أعصابه فترك المجرفة ، وأسرع إلى العرزال وتناول منه معولاً ، واندفع إلى السور المبني من الطين والحصى وشظايا الزجاج ، وراح يضربه بالمعول حاقداً عليه .

سمعت أم محب ضربات المعول تنهال على السور ، فنهضت من مجرى الماء ، ولحقت ابنها ، ورأته وهو يخبط خبط عشواء ، فتتطاير قطع من الطين وشظايا الزجاج في الفضاء ،

وينهار الحائط . **فصرخت** صرخة ذعر رهيبة ، وبقي محب مصمماً على هدم السور كله .

ظل محب يضرب بقسوة حائط السور ، حتى شعر بسائل ساخن ينساب على رقبته ، فاستند إلى طرف المعول ، وتحسس رقبته ، فوجدها تنزف دماً . فقد جرحته شظية من الزجاج المتطاير ، ولم يستطع تقدير مدى جرحه في عتمة الليل ، فترك المعول وركض خائفاً إلى المنزل .

كانت نعيمة قد يئست من امتثال ابنها لصراخها الكريه ، حين تخلى عن تهديم السور ، وابتعد عنها عائداً إلى المنزل ، فخمنت وقوع ضرر أصابه وأجبره على الإنصراف . فلم تتمالك نفسها من الخوف عليه ، فتبعته مسرعة إلى المنزل ، لتحضنه بين ذراعيها قائلة :

ـــ ولدي حبيبي .. ما الذي أصابك ؟؟

أجابها بصوت هادىء خجول :

ـــ جرحتني شظية في رقبتي .

وضع محب رأسه في حضن أمه ، التي انحنت عليه

بحنان ، لتمسح جرحه الدامي ، وتوقف نزفه ، وكانت أصابعها ترتعش كثيراً فهدرت كمية من القهوة الناعمة ، قبل أن تنجح في وضعها على الجرح .

انقطع النزيف ، وبقيا صامتين ، ثم قطعت نعيمة الصمت قائلة :

— ولدي محب .. سأجهز العشاء ، فهل ترغب في شيء ؟

أجابها متفادياً النظر إليها :

— أجل .. يا أماه .. أريد فنجاناً من الشاي .

وعلا نحيبه .

○

— ٣ —

سلطان الحب ..

انتصف نهار العطلة الأسبوعية ، ولم يخاطر متنزه واحد بالإقتراب من حقل محب الذي كان موحلاً في مواجهة الفجوة العريضة التي تركها محب في السور .

جلست نعيمة تحت شجرة الجوز الهرمة ، تراقب محباً ، فلاحظت قلقاً يعتمل في صدر ابنها ، فلم تجرؤ على الإستفسار منه . لقد تصالحا بعد خصام البارحة ، وانتهت الأزمة بينهما ، ولكن رواسب الخصام جعلتهما كغريبين ، يتصرفان بخجل وحذر ، ويتعمدان لطفاً مصطنعاً ، كان يزيد في ارتباكهما .

اتجه محب إلى مدخل الحقل ، وراح يحدق في الدروب ، ويتطلع في اتجاه المنازل ، تلفت كثيراً ، وراقب المارين به ، متفحصاً ، كأنه في انتظار شخص ، يتوقع أن يراه .

أصاخ السمع مراراً لضحكات رنانة ، فهبط قلبه بين جنبيه ، وامتقع لونه ، وكان يسرع في كل مرة ، ويطل من خلف السور على الصبايا ، ثم يعود خائباً . لقد مرت مجموعات فتيات ، كان بينهن أكثر من واحدة جميلة بل رائعة لكن فتاة منهن لم تستلفت نظره ، حتى ولو كان لها صدر ناهد وقوام بديع .

أجهدت نعيمة تفكيرها من أجل أن تكشف عن مصدر قلق ابنها ، فعرفت سره ، وقد فضحه خوفه من الإفتضاح ، فابتسمت إذ علمت أن ابنها صار شاباً ، وصار يتوق إلى ملاحقة الفتيات . فلامت نفسها على إغراق تربة الحقل بماء غزير .

قالت نعيمة مخاطبة ابنها دون أن تنظر إليه ، حتى لا تزيد في ارتباكه ، أو يفضحها السرور البالغ الذي طفح قلبها به :

ـــ اذهب يا محب .. حيثما تشاء ، فليس من ضرورة لبقائك هنا ، اذهب وامرح في حقل خالتك القريب ، فلن يدخل متنزه حقلنا الموحل في هذا اليوم .

استغرب محب أن يصدر هذا القول عن أمه ، وأدهشه تبدل لهجتها المباغت ، وظنها تسخر من سلوكه ، لكن أمه ابتعدت حتى لا تترك مجالاً لظنونه .

اجتاز محب عدداً من الحقول ، وكان يقف ، قليلاً في كل حقل ، ليراقب حلقات المتنزهين ، باحثاً عن الصبية التي أججت نار الحب في قلبه ، ثم يواصل سيره جاداً في البحث عنها .

فشل محب في العثور على رجاء ، فقدر غيابها عن النزهة ، ثم راوده شك ممض في أن يكون قد شاهدها بين الصبايا ، ولم يعرفها ، فهو لم يلقها غير مرة واحدة ، عندما أمسكت به فوق الساقية ، وكانت ترتدي قميصاً أحمر اللون وتضع شالاً أبيض مزخرف الحواشي ، فهل بدلت ثيابها وخفيت عليه ؟

حاول أن يستعيد ملامحها ، فعجز ولام نفسه لأنه لم يوطد معرفته بها أو بأمها ، واسترسل محدثاً نفسه :

ـــ كنت أبله في خصامي مع أمي وشريراً ، فقد

استبسلت من أجل وهم كان يملأ رأسي ، وحلم لعين .. سأعود إلى أمي شاباً مطيعاً ، ولن أخاصمها مهما تعارضت رغباتها مع رغباتي .

صمم محب على أن يهمل النزوة الطائشة التي ملكت عليه عقله ، وأن ينسى رجاء ، وارتاحت نفسه إلى هذا القرار ، فأقل راجعاً إلى الحقل ، ليبلغ أمه عن عزمه على إصلاح ما تهدم من السور ، وإتمام بنائه سريعاً .

رجع محب إلى البيت ، وجلس يتناول عشاءه دون شهية ، ويحدث أمه :

ــ غداً سأنشط مع الفجر ، لأغلق فجوة السور ، وأثبت باب الحقل في مكانه ، ولن يدخل متنزه واحد حقلك يا أمي .

توقع محب أن يرى الفرح يغمر وجه أمه ، التي استمعت إليه دون اهتمام فخيبت حماسته ، فصمت . وكانت أمه تفكر بدورها عن حل يعيد الشهية إلى وحيدها ، ويرجع محباً إلى طبيعته .

أدركت أم محب ، وكانت امرأة ذات خبرة ببنات جنسها ، معنى أرجوحة مدلاة من شجرة الجوز الهرمة ، تنصب قبل حلول يوم العطلة القادم . فقالت فجأة بعدما ومضت الفكرة في ذهنها :

ــ لا تعاندني يا محب ، ستنصب غداً أرجوحة متينة تحت شجرة الجوز .

نظرت نعيمة إلى محب ، وضحكت ، وفهم محب فضحك مسروراً .

○

طارت الأرجوحة في الهواء ، وطار صيتها في الحقول ، فاستجلبت فتيات من مختلف الأعمار ، تحلقن حول الأرجوحة ، يتصايحن ويتدافعن لاعتلائها ، فللفتيات أينما كن ولع شديد بالتأرجح . توسط محب وأمه حلقة الفتيات ، يتناوبان دفع الأرجوحة ضاحكين ، وسرت نعيمة بفرح ابنها ، وصارت تتعمد أن تفسح له المجال كلما اعتلت الأرجوحة

صبية ممشوقة القد رائعة الحسن. ولكنها فوجئت مراراً بعدم اهتمامه، حتى لو أصرت الصبية ذاتها على محب أن يؤرجحها، معللة طلبها بضعف أمه وقوة عضلاته.

كان محب يتوقع أن يرى رجاء قادمة مع أسرتها، أو بصحبة رفيقاتها، ولما لم يصدفها، مل من الأرجوحة، وصار يبتعد عنها، فأدهش غيابه أمه وتساءلت:

ــ ما خطب محب؟.. لم أعرف في حياتي طبعاً أغرب من طبعه، هل كنت مخطئة في تقديري رغباته.

نظرت أمه إلى الصبية الجميلة، التي اعتلت دفة الأرجوحة، ودفعتها مراراً، فناست الأرجوحة بشدة، وتثاءب ثوب الصبية عن ساقين وركبتين بضتين كالمرمر، وزاد في إغراء المنظر، ما كانت تقوم به الصبية من حركات الهز لتطيح بالأرجوحة عالياً، فكانت تجمع جسمها حيناً، وتبسطه حيناً، مع نوسان الحبال ذهاباً وإياباً، وكان ذيل ثوبها يرتفع، كلما طارت الأرجوحة صاعدة إلى الأمام، ثم ينتفخ وتستدير أطرافه كوردة تحيط بساقيها، حتى إذا تجاوزت الأرجوحة نصف

مسارها، التصق الثوب بجسدها مبرزاً تفاصيل أعضائها عضواً عضواً، فيحار المتفرج إزاء فتنة المشاهد، أيها أكثر إثارة.

نادت أمه بصوت مرتفع:

ــ محب.. تعال يا محب.. وهنت يداي لطول ما هززت الأرجوحة، تعال يا محب لأستريح من تعبي.

لم يأبه محب بنداء أمه، وبقي ساكناً قرب الساقية، قرب المطرح الذي كان مصدر سعادته، فصار مصدر تعبه، ولكنه نهض فجأة، فقد لمح وجه رجاء واقفة قرب أمه تنتظر دورها لاعتلاء الأرجوحة.

وثب من مكانه، واختلج قلبه، ودب خوف مجهول المصدر في صدره، لقد عرف محب رجاء من لمحة، ولم تكن ترتدي القميص الأحمر، وكان شالها منزاحاً عن رأسها، ومستريحاً حول عنقها.

اقترب محب من رجاء، ونظر إليها فشاهدته بدورها، فابتسم خائفاً وجبن عن إلقاء السلام، وفرح بشبح ابتسامة افتر ثغرها عنها.

اعتلت رجاء الأرجوحة ، **فدفع** محب أمه ليبعدها ، فتطلعت إليه مستغربة وقالت :

ــ ناديتك مراراً ، فلم تجب .. لم بدلت رأيك ، أنت مشاكس هيا ابتعد عني ، سأواصل هز الأرجوحة بنفسي .

أجاب محب بصوت يملؤه الاستعطاف :

ــ أرجوك يا أمي ..

سمعت رجاء استعطافه ، فتبينت حرصه على دفعها ، فسكنت تنتظر ، ريثما أفسحت أمه المجال لمحب ، ثم التفتت نحوه ، فالتقت نظراتهما ، وابتسم محب ، واحمرت وجنتا رجاء .

شهد محب حمرة الخدين من الخجل فأحس بقلبه يغور بين جنبيه ، لا ريب في أنها عانت من ضمها ما عاناه نفسه ، فانتابه فرح طروب ، وراح يدفع دفة الأرجوحة ، ويحوم حولها ، ناظراً إلى شعرها الخرنوبي المتطاير على وجهها كواحدة من حور الفردوس .

احتضن جسمها في مائة دفعة ودفعة ، دون ملل ولا كلل ، ولولا ضجة أترابها من حوله ، لبقي يدفع الأرجوحة

إلى الأبد ، فهو عاشق يخشى من غدر الزمن ، **فكان** يتمنى لو يقف الزمن عند هذه اللحظة السعيدة .

○

يتبادل الليل والنهار السهول والروابي على خفقات ، فتنسحب الأنوار من الوديان ، ثم تنحسر عن النجاد ، كأطفال شقر يلهون في الأفق قبل حلول الظلام ، ولكن أمهم الشمس تسحبهم معها ، ويعود كل ذي جناح إلى عشه .

تحط الطيور جماعات على الأشجار ، وتشدو نزقة ، ثم تطير فيخيم السكون على الحقول ، وتكون الشمس قد بدأت تستحم في مياه المحيط ، فيتلون الموج بلون فيروزي جميل ، ويصطبغ الأفق بالشفق الوردي .

تصبح الحقول بديعة عند غياب الشمس ، ويطيب الصمت حتى كأنه أعذب حديث ، فتخفت ضجة المتنزهين ، ويفكر كل منهم في حلمه الجميل ، ويستعد للإنصراف فقد حان وقت الرجوع .

تبع محب رجاء حتى غادرت الحقل، ثم أقبل على أمه وهو منشرح الصدر وسألها باسماً :

ـــ كيف حالك يا أماه .. ؟

نظرت أم محب إلى ولدها باستغراب وقالت :

ـــ أشعر بتعب شديد .. صرت عجوزاً .

ضحك محب دون سبب، ثم مد يده من خلف الشجرة، وجذب خمار أمه التي انتهرته وأعادت الخمار إلى مكانه، فجذبه محب ثانية، واسترسل في ضحكه .

أنبته أمه بصوت هازل، يملأه السرور، فاستحثه تأنيبها على الإستمرار في مداعبتها، فنقفها بقشرة شجر طرية، فأخذت نعيمة قضيباً طرياً وهجمت عليه . فر محب وتبعته أمه راكضة، وكان يقف لتدركه، ثم يجري بسرعة، ويدور حول الأشجار، حتى بلغا الأرجوحة معاً، فجلست أمه على دفتها لتستريح ومازالت تهدده بالقضيب .

اقترب محب من الأرجوحة، ودفعها مراراً، فخطرت الأرجوحة تحت شجرة الجوز الهرمة، وتمتعت أمه بالتأرجح كأية

صبية . ولكن محباً زاد في دفعها حتى خافت أمه وصرخت وشتمته قائلة :

ـــ على مهلك يا محب .. كفى يا شيطان .

أوقف محب الأرجوحة، ونزلت أمه منها مسرعة، وهجمت وضربته على كتفه فبقي يضحك مسروراً، وحاول أن يحيط جسمها بساعديه، فاختل توازنهما ووقعا معاً إلى الأرض، فتمددا على العشب .

توسد محب حضن أمه، فمدت نعيمة أناملها إلى شعره، وعبثت به وازداد حنانها رقة، فرغبت في ضم ابنها، فانحنت عليه وقبلته في جبينه فقال محب ضاحكاً :

ـــ جسمك قاسٍ جداً يا أمي .

نعرت نعيمة محباً في جنبه وقالت متأثرة من كلامه :

ـــ قم من حضني، فقد هرست لحمي بثقل رأسك، أنت لم تعد طفلاً خفيفاً، كبرت وصرت دباً . سأزوجك قريباً يا بني .

ضحك محب فاسترسلت نعيمة قائلة :

ـــ سأزوجك قريباً يابني ، سأزوجك على حياة عيني ، لأنني أخشى أن يدركني الموت وأتركك وحيداً ، يجب علي أن أزوجك بسرعة حتى لا تقع في امرأة سيئة .

كانت نعيمة تتكلم ، ومحب يصغي ويتخيل رجاء ، ولكنه لم يخبر أمه بأمرها ، لأن ما جرى بينهما ليس كافياً ، فقرر أن ينتظر حتى يتأكد من عاطفة رجاء نحوه . فبقي صامتاً محتفظاً بسره في قلبه .

○

مهما ضاق تفكير امرأة فإن إحساسها الباطني يظل مرهفاً في علاقتها مع الطرف الآخر ، فتعرف من نظرة عابرة مدى الإعجاب بها ، وتدرك من لمسة برأس الأنملة أية غاية في نفس يعقوب . وهي عندما تتجاهل الأمر ، أو تهتم به لا تحتاج إلى ذكاء خارق ، بل تتصرف بغريزتها ، وهذا ما فعلته رجاء مع محب .

كانت رجاء تجتاز سني مراهقتها ، ولم تخبر موضوع

الحب قبلاً ، وكان شعورها يتزايد يوماً إثر يوم . بإمتلاء فخذيها ، واتساع وركيها ، وتكور نهديها في صدرها ، فلم تمنع حداثة سنها من فهم إحساس محب .

ترددت إلى الحقل كثيراً ، وركبت الأرجوحة مراراً ، وتمتعت بلمس أصابع محب في جوانب جسمها ، وكانت تسعى في كل مرة ، إلى لفت انتباهه بضحكة رنانة ، أو وثبة رشيقة ، ويلذ لها أن تراه يتبعها من مكان إلى مكان ، حائراً ملتاعاً .

ضحكت رجاء في حضور محب ، وبشت له ، وردت على سلامه ، ولكنها لم تشعر نحوه بعاطفة تكبلها ، فقد كان محب فلاحاً في نظر رجاء ، يستحيل أن تربط حياتها به . إنما كانت تجد في شبابه ، ما يرضي غرور مراهقتها دون خوف ، فهو ساذج يحبها حباً عميقاً ، ويقنع بمشاهدتها .

حلم محب طويلاً ، ولم يدع رغبة ذات نشوة ، يمكن أن تخطر لإنسان عاشق ، إلا وداعبت خياله . فتمنى حضورها على مائدته وهو يتناول الطعام الشهي ، وتمنى رفقتها في

الأمسيات الجميلة ، وعند نهوضه صباحاً على شدو البلابل ، وكان يتصورها جالسة عنده ، فتغمر السعادة قلبه ، وينشرح صدره حتى إذا انقطع الحلم وصدمته حقيقة غيابها عنه ، تملكه اليأس وضاقت الدنيا في عينه ، وفكر في مصارحتها .

سيقول لها :

ــ رجاء أنت جميلة .. وأنا أتمنى أن أراك في كل يوم .

ثم لا يلبث أن يستنكر هذا الحديث ويقرر أن يعرب عن عاطفته مباشرة بقوله :

ــ أحبك يا رجاء .. وسأخطبك لنتزوج .

كان محب يحار بين العبارات الكثيرة التي تخطر في باله وهو وحده فإذا لقيها ، لم يجد في دماغه ما يقوله ، فيتصرف كمغفل ولا يقدم على عمل حكيم .

لاحظت نعيمة شرود ابنها الدائم ، ولاحظت إقباله على العمل في الحقل بنشاط ، وكانا يعملان معاً ، عندما توقف فجأة ليسألها :

ــ كيف تزوجت من أبي ، يا أمي .

ضحكت نعيمة وقالت :

ــ تعرفت على أبيك عن طريق الأقرباء ، فصار يزور حقلنا ومعه قصبة يعزف عليها ألحاناً يغازلني بها .

تذكرت نعيمة فائت الأيام ، فتبسمت ودمدمت باللحن ثم غنت :

ــ على اليادي اليادي اليادي

يا بو العبيديا ، رمان صدرك دبل ، رشي عليه مايه

يا ربي يغيب القمر ، وسلمك حالي

وتكون ليلة عتم ، والسروج مطفيه

على اليادي اليادي اليادي

يا بو العبيديا ، تلتين عقلي شرد ، في هوى البنية .

لم يعد صوت أمه جميلاً بعد الكبر ، ولكن كلمات الغزل التي صدح صوتها بإنشادها ، ذات معان جميلة ، أعجبت محباً ، فأسرع وقطع قصبة من طرف الحقل وشذبها وحاول أن يعزف اللحن عليها .

كان عزفه على القصبة رديئاً ، ولكن أصواتاً معقولة

صارت تنتشر من القصبة بعد جهد . فرمى محب القصبة إلى الأرض وقال :

— سأشتري أفضل منها عند نزولي إلى السوق ، وأتمرن حتى أصبح عازفاً بارعاً مثل أبي ..

تأكدت نعيمة من رغبة ابنها في الزواج فقالت له :

— ما رأيك في أن أخطب لك ابنة خالتك سميرة .

استنكر محب قول أمه بشدة ورد عليها :

— أفضل أن أبقى عازباً على أن أتزوج من ابنة خالتي .

— اقبل يامحب فتجدها نعم العروس في ليلة الدخلة .

— أرجوك ياأماه ، إنني ..

كاد محب أن يصرح عن حبه ، ولكنه أمسك في اللحظة الأخيرة فسألته أمه :

— أتكرهها يا ولدي ؟؟

— لا يا أمي ، أنا لا أكره ابنة خالتي ، ولكني لا أحس ميلاً إليها ، أنا لا أشتاق إلى رؤيتها ، لن أتزوج إلا من الفتاة التي أشتاق إلى رؤيتها في كل يوم .

أدركت أم محب سبب شرود ابنها ، وفهمت حقيقة حاله ، فحاولت أن تثنيه عن قراره فقالت :

— كبرت ابنة خالتك ، وصارت آنسة جميلة ، ولن يكلفك زواجك منها غالياً فبيتنا مفروش ، ولا يلزمك سوى شراء بعض الحاجات الجديدة ، استمع إلى نصحي يا محب حتى لا تندم طوال حياتك .

ابتعد محب عن مكان والدته غاضباً ، وكان يفكر في حبيبته رجاء ، التي لن يقبل عروساً غيرها مهما كلفته من صعاب . بينما تابعت نعيمة ابنها مبتعداً ثم نظرت في اتجاه المدينة ، وعادت ببصرها إلى السور الناقص .. وتنهدت وقالت :

— يا الهي .. لقد خلقته برحمتك ، فلا تحرمه من عطفك .

○

تشتد الحرارة مبكرة في حقول الغوطة ، قبل انتهاء الربيع ، ويتلون ثمر المشمش ، فيظهر كمصابيح شجرة الميلاد ،

وتنضج حبات التوت صباحاً ومساء ولكن سيل المتنزهين ينقطع عن ارتياد الحقول .. إلا لماماً قبل المساء .

لاحظ محب اختفاء المتنزهين ، وندرة حضور الفتيات ، فقد اشتد القيظ فآلمه هذا الأمر كثيراً ، وحز في نفسه انقضاء شهر كامل على مشاهدته رجاء للمرة الأخيرة فقد انقطعت بدورها عن القدوم في يوم العطلة .

لام محب نفسه لأنه لم يجرؤ على سؤالها عن عنوانها ، ولم يلحق بها مرة حتى مسكنها ، وساورته الظنون في فقدها ، فقر رأيه على البحث عنها في الحارات القريبة التي تطل منها قادمة أو تغيب فيها مبتعدة .

اعتاد محب أن يذهب مرتين إلى المدينة في الأسبوع ، ولكنه من أجل البحث عن حبيبته ، صار يتردد إلى السوق كل يوم ، لعل الحظ يسعده برؤية رجاء تطل من نافذة بيتها ، أو يشاهدها في الطريق متجهة نحو المنزل ، وهي تخطر بقوامها الأهيف فوق الرصيف .

استغربت نعيمة هذا التصرف الخاطىء من ابنها ،

ورأت فيه ضياعاً للجهد والوقت ، دون فائدة ترجى ، فلم تكن ثمار الحقل قادرة على تزويده كل يوم بكمية كافية من البضاعة تستلزم ذهابه إلى المدينة .

رفض محب نصيحة أمه ، فعادت المشاحنات بينهما ، ولكنها لم تطل كثيراً لأن نعيمة أحست بعذاب ابنها ، فقد أمضت لواعج الشوق محباً ، ونالت اللهفة منه ، وبراه الحنين حتى اتسمت تصرفاته بالشرود ، ونحل جسمه وهزل من الأرق المستمر والتفكير الدائم .

حاولت نعيمة أن تخفف من حزن ولدها ، الذي طالما رأته مسهداً جالساً في سريره ، أو متجولاً في الحقل قرب الساقية ، كان ذلك الحب الذي يعيشه محب حبه الأول فكان غراماً عنيفاً قاسياً ، فأخفقت جهود أمه في تبديل شيء من تصرفاته ، وظل محب يقود حماره في كل صباح ويذهب إلى المدينة دون انقطاع .

أقدم محب على قطف الفاكهة الفجة ، وواصل تنفيذ الخطة التي وضعها يشد من عزيمته ، ما كان يتصوره في ذهنه

من حلاوة اللقاء، وما كان يتذكره من بشاشة في سلامها وابتساماتها العذبة في وجهه. فلم تهن عزيمته على الرغم من الخيبة التي كان يجر أذيالها خلال العودة، ويجر قدميه المتعبتين بعدما أنهكه التجول في الحارات ساعات طويلة.

كان محب يرفع رأسه خلال تجوله نحو شبابيك المنازل، أو ينظر من الكوى إلى داخل الدور، ويتطلع إلى الصبايا اللواتي يصدفهن في النوافذ وخلف الأبواب بحثاً عن رجاء. وكان هذا النظر غير اللبق أمراً مزعجاً لعدد كبير من الناس، فناله منهم إهانات وشتائم ولعنات.

لمح مرة صبية منزوية بين درفتي باب وكانت ترتدي قميصاً أحمر اللون، وظنها رجاء، فلم يمهله الشوق، فاقترب من الباب وتلصص عليها دون خجل وظل واقفاً وقتاً طويلاً دون أن يساعده الباب الموارب على التحقق من هويتها. حتى رآه زوج المرأة واقفاً محدقاً، وكان الزوج غيوراً، فاهتاجت أعصابه وأمسك محباً من ثيابه وصرخ في وجهه:

— ولك قليل الأدب.. اخجل وكفاك بصبصة على النساء، أليس لك عرض تغار عليه، أنت وقح.

عجز محب عن شرح حاله، فظل صامتاً، ولوى رسن حماره وحاول الابتعاد لكن الزوج الغيور وجد فرصة لإظهار بطولته أمام زوجه، فأخذه بالهز والصفع على وجهه ورقبته صفعات مؤلمة، وخشي محب أن تظهر رجاء وتراه على هذه الحال فاستعطف الرجل، وتملص من قبضته وتابع طريقه.

لم تثنه جملة المشاكل التي وقع فيها عن هدفه، ولم يبدل من موقفه الثابت على حب رجاء، ما كان يراه خلال تجوله عند النساء غيرها، من جمال في الصدور ونحولة في الخصور، وهيف في القدود، فكثيراً ما استدعته امرأة أمام بيتها لتشتري منه فاكهة، وتناولتها منه مبرزة شق جسمها، لايستره غير قميص النوم الرقيق، أو شلحة من النايلون ذات دانتيل مثير.

○

متى انتفت الصدفة وجبت القاعدة، وما يكون قاعدة في مجموعة من الظروف يصح أن يطلق عليه صدفة في ظرف آخر. اتبع محب قاعدة الذهاب إلى المدينة في كل صباح

والتجول في حاراتها ، في سبيل رؤية رجاء ، فلم تجمعه صدفة سعيدة بها ، فقد كان الإحتمال ممكناً ومستحيلاً ، فيكفي أن يمر من أمام منزلها قبل أو بعد دقائق معدودات حتى يرى أو لا يرى فتاته مطلة من النافذة ، أو خارجة من البيت لكن الإستمرار يجعل المستحيل أمراً ممكن الوقوع .

حصر محب بحثه عن رجاء في مجموعة قريبة من البيوت ، ثم ابتعد طولاً وعرضاً إلى مجموعة جديدة ، وواصل البحث . وكان عائداً من جولته المعتادة ، وكان فكره خالياً من لقائها ، عندما شاهد رجاء واقفة على سطح منزل متاخم لأول بستان ، وهو السطح الذي طالما شاهده من حقله ، ومر به مئات المرات .

وقف محب جامداً في الحارة ، ينظر إلى حبيبته طويلاً ، وينتظر أن تراه ليتم اللقاء الذي كان يحلم به ، فحدق فرحاً وخفق قلبه ، وأطلت رجاء على الطريق فشاهدت فلاحاً مع حماره ، فلم تلتفت إليه ، فغص حلق محب حسرة ، فنادى على بضاعته ليلفت انتباهها ، وكرر النداء مراراً .

سمعت رجاء نداءه ، فعرفته في الحال ، فضحكت

غروراً ، وكان شكله مثيراً للضحك ، وهو واقف مع حماره المنهك ، ينظر إليها بعيني عاشق ، ينتظر سلاماً أو بسمة ترضي خاطره ، وتسكن شوقه .

سألت رجاء جارتها :

ـــ أتريدين فاكهة ، في الحارة بائع مهاود .

أجابت الجارة :

ـــ سمعت صياحه ، وعرفته ، إنه بائع مهاود ، لكن فاكهته فجة ، ونظراته غريبة .

ـــ إنه شاب بسيط مغفل .. انزلي لنضحك قليلاً .

نزلت رجاء من السطح ، ووقفت أمام البيت ، واتجهت جارتها إلى الباب وكان البابان متجاورين وسألته رجاء بخبث قائلة :

ـــ أخبرتني الجارة ، أن فاكهتك فجة ، ولهذا السبب لن نشتري قبل أن نذوقها .

ابتسم محب وحاول أن يقدم لها أجود ما بقي لديه ، فتقدمت بنفسها من سحارة الفاكهة ، ورفعت طرف ثوبها

... نفسيه ، ووزعتها وأعادت الكرة وهي تعلم أن محباً ... على تصرفها ، فلم تتوان عن توزيع ما بقي لديه وضحكت مع الجارات كثيراً .

لم يعد محب بحاجة إلى الصدفة السعيدة كيما تجمعه برجاء ، فقد أضحت قاعدة كل صباح ، وازداد محب شغفاً برجاء ، لأنها لم تصده بتاتاً ، بل صارت ترحب بلقائه وتتنهد خلال محادثته ، وكانت تتقن دورها جيداً حين ترمقه بجفن ناعس وتنظر إليه بهيام يعادل وله بها ، حتى إذا أحست في نفسها ميلاً شديداً إلى الضحك ، كانت تختفي وراء الباب وتطلق ضحكها على سجيته وكان الضحك يدمع عينيها ، فتعود إلى محب بعينين مبللتين بالدموع ، فيرتعش قلب محب من جلال عاطفتها تجاهه ، ويستصغر غرامه أمام نبل ما تكنه هي من مودة وهيام ، فيقدم لها أحسن ما جمعه من حقله دون تردد أو بخل .

انفضحت حكاية محب في الحارة ، وعرفت الجارات بها ، فتابعن مشاهد التمثيلية بلذة وشغف ، فلا يكاد يصل محب حتى يتنادين صائحات :

— جاء مجنون ليلى .. وصل المجنون . قيس بائع الخضار والفاكهة في الحارة .

كن يتدافعن إلى رؤيته من الأبواب والنوافذ ، وكانت أمل جارة رجاء المستهترة تكشف عن مفاتنها دون حياء أمام عينيه وتسأله :

— أنا أجمل أم رجاء ؟؟

ثم تسترسل ضاحكة :

— طبيعي رجاء .. «دخيل رجاء» .

كن يداعبنه بالقول أو بالفعل ، فيقرصنه في خاصرته ، ولا يجدن غضاضة في فعلتهن ، فهن مجتمعات حول رجل واحد ، فتنقلب أشدهن خجلاً ، إلى امرأة غانية لعوب ، فإذا اعترضت واحدة منهن أو لامت جارتها على سلوكها أجابتها الجارة :

— انظريه .. إنه شاب ساذج مغفل وفلاح .

كن يجدن محباً فلاحاً ، وهن من أهل المدينة ، وكان هذا السبب كافياً في عرفهن لطرح الحياء ، وترك التشدد عند

لقائه ، ولم يلتفت محب إلى واحدة منهن ، بل كان يغض من بصره خجلاً ، كلما قللت إحداهن الحياء ولاسيما أمل التي كانت تظهر أمامه مشمرة عن ساقيها لتشطف عتبة الدار .

وقع محب في نزاع بينه وبين نفسه ، فقد كان عليه حتى يشاهد رجاء أن يصمت على لواذع كلام جاراتها ، وأن يخسر قسماً من ماله إزاء طمعهن المتزايد ، وذلك رغبة منه في إرضاء الحبيبة التي حار في فهم سلوكها ، فهي لم تحرك ساكناً لحمايته منهن مرة واحدة .

قبل محب الأمور على علاتها ، ولم تعذبه غير فكرة واحدة ، لما وجد نفسه مجبراً على اللجوء إلى الكذب لإقناع أمه ، فقد انتابت الوساوس ذهن نعيمة وقدرت أن ابنها وقع فريسة أمر خطير لأن أثمان مواسم الحقل في تناقص مستمر .

ادعى محب هبوط أسعار الفاكهة ، وصدقته أمه لأول وهلة ، لمعرفتها الأكيدة بصدق ابنها ، فتألم محب من سرعة اقتناع أمه ، وكان ألمه شديداً ، لأنها المرة الأولى التي يخدع فيها ضميره ، ويوهم أمه بالباطل .

لم يشك محب لحظة في إخلاص رجاء ، وكان يفسر سلوكها ، كإمتحان لمقدار تضحيته من أجلها . وبقي السطح الذي يراه من حقله دافعاً قوياً لعودته إلى الحارة ، وبقيت ملابس رجاء التي صار يميزها وهي منشورة فوق السطح تناديه وتستحثه على مواصلة الكذب ، حتى صار سهلاً عليه أن يلفق ألف حكاية وحكاية في تفسير تأخره وضياع ماله ، وكانت كلما ازدادت مهارته في التضليل ، ازدادت أسئلة أمه دقة ، فقد آنست نعيمة ميلاً لدى ابنها للمخاتلة ، فآثرت أن تعتبره مريضاً وليس سيئاً ، ولامت تهاونها في عزل الحقل عن المدينة بالسور .

○

أخرج محب النقود من جيبه ، وتقدم بها إلى والدته ، فلم تلتفت نعيمة إليه بل بقيت تتطلع من النافذة ، فوضع محب النقود في حجرها ، وظل واقفاً ينتظر حوارها المعتاد ، ويفكر في الخداع ، ففاجأه صمت أمه ، وأدرك أن ستكون مجابهة بينهما فاستعد بأعصاب هادئة ، حتى لا يتخاذل أمامها .

أضحى محب كتلة من الغضب ، دون أن تنبس أمه بكلمة ، فدار في الغرفة متألماً من تجاهل أمه ، حيث كان يعرفها ، ويصعب عليه ازدراؤها له أكثر من غضبها عليهِ فهو لون من السيطرة التي تثير الأعصاب ، فبدت والدته في نظره أقوى من الطبيعة الهوجاء ، وأرهب لقلبه مما لو صرخت في وجهه وعاتبته بكلام قارص .

حاول محب أن يثيرها ليخرجها عن صمتها ، فقامت واتجهت خارج الغرفة دون أن ترد عليه فأمسك بثوبها عند عتبة الباب وقال بين الغضب والرجاء :

ــ أمي .. حدثيني بكلمة واحدة .. لست كلباً .

ضغطت الوالدة شفتها ، وأصرت على الإبتعاد دون أن تتكلم ، فلم يفلتها محب وعاد إلى سؤاله :

ــ أمي .. اشتميني إن أردت .. وبخيني ولكن لا تبقي صامتة .. اصرخي في وجهي ، فخصامك أخف وطأة من تجاهلك .

قالت أمه :

ــ دعني وشأني .. فقد تركتك من أمد لشأنك ، لاحظت ميلك للإنعزال فلم أقف في طريقك .. هيا اذهب واعتزل في غرفتك أو قرب الساقية .

ــ إنك لم تسألي على عادتك أسئلة محرجة .

ترك محب ثوب أمه ، فبقيت واقفة وقالت :

ــ أشعر بضيق من وجود النقود مخبأة لدي .. أخشى أن أموت فجأة فيضيع ما خزنته من أجلك .. لذا قررت أن أدع لك النقود كلها .. سأعطيك إياها كلها ، مع ثمن سلة من الفاكهة بعتها في غيابك بثمن مرتفع .. تعال خذها يا ولدي .

شعر محب بحرج ، وأرخى بصره وقال بصوت خافت :

ــ هل أنا كذاب ؟؟

لم ترد والدته عليه ، فعاد إلى غضبه وصار يصرخ عالياً :

ــ قولي تكلمي .. فهذا ما عنيته بكلامك .. هل أنا كذاب ومحتال .. ؟؟

صرخ كثيراً ، وثار بحدة ، ولما لم يعد يجد لديه قوة

تساعده على مواصلة ثورته، استلقى على بساط الغرفة، وانتحب بشدة، وصارت دموعه تجري على وجهه.

تركت نعيمة ولدها يغسل أدران الخداع الذي مارسه زمناً طويلاً، ثم عادت إليه فوجدته هادئاً قرب النافذة، يتأمل الحقل بخشوع، وقد انشرح صدره فاقتربت من مجلسه وقالت له:

ــ حدثني يا ولدي بقصتك كاملة.. فأنت تخفي عني سراً يفرحك آناً ويتعسك غالباً.

أحس محب برغبة في مكاشفة أمه، فالتفت إليها وراح يقص عليها حكاية حبه كاملة، وكان يجد حبوراً في البوح بها، فسألته أمه:

ــ هل أنت واثق من حبها لك.. ؟؟

ــ نعم يا أمي.. رجاء تنتظرني كل يوم، لتستقبلني أحسن استقبال.

ــ أتريد أن أخطبها لك.

أجاب محب بصوت يرتعش بالحنان:

ــ أجل يا أمي.

زوت نعيمة حاجبيها، وكانت تفكر في حكاية ابنها، ثم قالت بصراحة:

ــ لكن يا ولدي.. رجاء من عائلة متمدنة، وليست فلاحة مثلنا.

رد محب واثقاً:

ــ إنها تحبني كثيراً، وحكاية حبنا معروفة في الحارة، حتى أن جاراتها سألنني، متى ستأتي أمك لترى رجاء وتخطبها لك.

— ٤ —

الخطبة

اشترى محب مجوزاً من السوق ، ومارس العزف عليه مراراً ، حتى أتقن عزف عدد من ألحان العتابا ، وكان مصمماً أن يدبك في ليلة عرسه حتى تتقصف ركبتاه ، وأن يلوح لعروسه بالمنديل ، كلما أطلت عليه من النافذة ، حتى تراه كما وصفت نعيمة أباه جميلاً وقوياً .

سأل محب أمه :

— أسيكون لي عرس كعرسك يا أمي ؟؟

— لا يا ولدي ، لن يكون لك عرس كعرسي ، لأن أفراح المدينة تختلف عن أفراحنا في الضيعة .. حملني والدك من بيت أبي على فرسه حتى أوصلني بيته .

— أمي .. ليس لدي فرس ، عندي حمار ، فهل تقبل

رجاء الركوب خلفي على الحمار أم نستعير فرساً لليلة العرس ونزينها ؟ .

ـــ سنستعير فرس زوج خالتك ، إذا قبلت رجاء أن تتزوجك ، وقبلت أن تردفها وراءك على ظهر فرس .

ـــ ستقبل رجاء، ولكن زوج خالتي سيرفض إعارتنا فرسه .

ـــ لم تظن هذا الظن ؟

ـــ لأنني لم أتزوج ابنته ، سيغار ولن يحضر أحد منهم عرسي .

صمتت أم محب فاسترسل محب في حديثه :

ـــ لقد أتقنت العزف على المجوز ، فلمَ تؤجلين الذهاب إلى بيت رجاء كأني بك تحاولين أمراً في الخفاء .

ـــ تريث يا ولدي حتى أستعلم عن أحوال أسرتها ، وعن أخلاقها وحسن تربيتها ، ولا تستعجلني ففي العجلة الندامة .

لم يقتنع محب بعذر أمه ، وواصل إلحاحه عليها ، وواصلت أمه استمهاله . وكانت تجمع المعلومات المتاحة من أفواه معارف الأسرة ، فعرفت أن أباها معلم في مدرسة

ابتدائية ، ولديه خمسةُ أولاد ، وأن أحوال الأسرة أقرب إلى الفقر ، فتعيش الأسرة في قلة وحرمان ، ولولا حسن تدبير أم رجاء شؤون منزلها ، ولولا صدقة المناسبات والأعياد ، لما لبست رجاء وإخوتها وأخواتها ثوباً جديداً يوماً من الأيام .

جاءت كافة المعلومات التي التقطتها نعيمة من أفواه الناس مشجعة على المضي في الخطبة ، فوق ما سمعته من تأكيد محب المستمر :

ـــ أمي لا تخشي من خطبتها ، رجاء تحبني ، وحكايتنا معروفة في الحارة .

○

موضوع الزواج في دمشق موضوع معقد في الأحوال الملائمة ، وفي أحسن الظروف ، فلا يتم زفاف واحد في دمشق بسهولة ويسر ، فتقرب أسباب وجهات النظر حتى يصبح عقد القران وشيكاً ، ثم تظهر أسباب تحيل الإتفاق إلى خصام مر ، فكم من زواج فسخ قبل عقده ، أو بعد عقده بليلة واحدة ، لينطبق المثل الشعبي «ألف قلبة ولا غلبة» .

ينتصب طموح الفتيات عقبة في كل خطبة، فإذا قنع عدد منهن بأزواج عاديين، فإن أغلبهن ينتظرن فرساناً، وليست الفروسية في أن يكون الخطيب عالماً أو أديباً مشهوراً، أو رياضياً صاحب رقم قياسي، فهذه قضايا تافهة، بل كانت الفروسية فيما بينهن، أن يكون العريس موظفاً في السلك الدبلوماسي، أو طبيباً أو مهندساً، أو ذا ثروة كبيرة، تسمح له بالتحدث عن مسكن فخم وسيارة فاخرة...

ويعقد طمع الأم الزواج أيضاً، فلا تقبل الأم أن تفرط بابنتها بعدما تعبت بتربيتها دون ثمن معقول، يتفق عليه الطرفان في اجتماعات متتالية فإذا قبلت الفتاة ورضيت أمها عنه، تنتقل الموازنة بين الخطيب وخطيبته إلى ألسنة الجيران والمعارف، التي لا تكف لحظة عن الدس لدى الطرفين، حتى تفصم الخطبة.

تظل القاعدة السائدة في دمشق، أن تصعد الفتاة بواسطة زواجها إلى منزلة أرفع من منزلة بيتها، ولا سيما إذا كانت جميلة، فكان من حسن حظ رجاء أنها فتاة دمشقية، فيحق لها أن تحلم بعريس فارس، ويحق لأمها أن تساوم على

رأسها الجميل، وهذا من سوء حظ محب، لأنه شاب فلاح يعيش في ضاحية المدينة، فهو عاجز على أن يبدو فارساً في نظر رجاء، حتى لو كان فارساً في نظر ابنة خالته، لأنه سيرث حقلاً عن أمه، أوسع من حقل أبيها.

حملت عربة «كارو» كان يجرها حصانان محباً ووالدته وسلة كبيرة من الفاكهة، وأربع دجاجات. وسارت العربة بعناء بين دروب البساتين، وتعثرت فإما أن تمسكها أرض موحلة أو يعلق واحد من دواليبها في الحفر الكثيرة.

شتم سائق العربة مراراً.. ولعن قبوله، وطالب بزيادة الأجر، بينما جلست الأم صامتة في طرف العربة، وجلس محب في الطرف الآخر، ووضعت سلة الفاكهة بينهما. أما الدجاجات فربطت أطرافها بخرقة عتيقة، ورميت في أرض العربة فظلت تصيح وتحاول الإفلات، وعمل محب على إسكاتها، لأن الجو متوتر، ويخشى من الحوذي، أن يزداد غضبه من صياحها، فيستل سكينته ويذبح الدجاجات.

وصلت العربة إلى الحارة، فتبعها عدد من الأولاد،

وتعلق كبيرهم وراءها فرماه الحوذي بسوطه، وصرخ شاتماً، فكره محب الأولاد، خوفاً من تعقيد هذه المناسبة الصعبة عليه.

خرجت نعيمة عن صمتها قائلة:

— أليست ابنة خالتك أفضل لك من تلك المتعجرفة.

— ليست رجاء متعجرفة، انتظري حتى تريها.

نزلا في الحارة، ونقد محب الحوذي أجره، وأعطاه زيادة، فقد خشي من صوته، ولا سيما في لحظة حرجة كهذه، فكان محب مستعداً لإعطائه ما يريد ثمناً لتخفيض صوته، وكأنه ليس قادماً لخطبة، بل لموضوع منكر.

كان منظر الاثنين اللذين حاولا أن يتأنقا مضحكاً، فلم تعتد نعيمة على ترتيب «البونيه الأسود الشفاف» على رأسها ووجهها، فظهر مكوماً على رأسها كالعمامة السوداء، وكان مسدلاً من طرف، ومشموراً من طرفه الآخر. بينما عقد محب ربطة عنقه وفخمها ليراها الناس بوضوح، فظهرت أكبر من قرص اللفت، وضاقت قبة القميص حول رقبته، فبدا عنقه وقد ازداد طولاً.

وقفا وإلى جانبهما سلة الفاكهة والدجاجات، وحوم الأولاد حولهما، ولاحظ محب تردد أمه فاستحثها مشجعاً، فطرقت نعيمة باب منزل رجاء باستحياء وأفلتت دجاجة من الرباط، وفرت فتبعها محب في الحارة وتبعها الأولاد صائحين وعثر محب بواحد منهم فسقط على الأرض وتعفرت ملابسه بالتراب.

وافلتت بقية الدجاجات، وفرت بدورها، ودخلت واحدة خلف باب أمل وكان موارباً، فطرق محب الباب، وظهرت أمل وأنكرت رؤية الدجاجة، وصاحت بصوت عال، فأطل عدد من النسوة، وشاهدن محباً وقدرن في تلك الواقفة أمه التي رافقته أخيراً لتخطب رجاء له، فتصايحن:

— جاء مجنون ليلى.. جاء قيس بائع الخضار والفاكهة.

وعلا ضحكهن.

فتحت رجاء الباب، ورأت أمه، وسمعت الصياح والضحك، ورأت محباً يجد وراء الدجاجات، وما يكاد يقبض على واحدة منها، حتى تفر الثانية، ففهمت الوضع.

قالت واحدة منهن :

ـــ هذا مهرك يا رجاء .. أربع دجاجات وسلة فاكهة .

وصاحت جارتها السليطة أمل :

ـــ سيشتري لك ألبسة طويلة مزركشة ، ويضع لك جرساً في خاتم الخطبة .

تخلت رجاء عن الدور الذي كانت تلعبه ، وتجاهلت محباً ، وشاركت في الهزء منه والسخرية من أمه ، وحضرت والدة رجاء وأطلت بقية الأسرة ، وشارك كل من حضر في التعليق على الموضوع بنكتة قاسية .

كانت الحارة متفرعة من زقاق آخر طويل ، وكانت ضيقة وذات صفين من البيوت المتلاصقة ، المطرزة بالشبابيك ، فلم يبق أحد في الحارة ، إلا وأطل يتابع المهزلة مسروراً .

صرخ زوج ينتهر زوجته :

ـــ ارجعي يا أم محمد إلى طفلك ، إنه يكاد ينشق من البكاء ، عودي ودعي الناس في همهم .

فلم ترجع وبقيت تتفرج ، ومر عابر أمام الحارة فاختبأت الرؤوس برهة ، وعادت ثانية .

قالت نعيمة تخاطب أم رجاء مستفسرة :

ـــ أرجوك يا أم رجاء .. ألم توافقي على حضوري لرؤية ابنتك .

ـــ ليس لي علم بالقصة كلها ، تفضلي استريحي .

دعت أم رجاء نعيمة إلى الدخول ، ولكنها بقيت واقفة تسد الباب فقالت نعيمة :

ـــ أخبرني ولدي أن ابنتك موافقة على خطبته ، ولذا أتيت إليك .

ـــ كلامك مستحيل ، لأن رجاء ستتم دراستها ، ولايمكن أن يوافق أبوها على زواجها قبل أن تنهي دراستها .

ـــ أعرف ابني جيداً ، ابني صادق لا يكذب ، وخاصة في أمر مهم كهذا .

أجابت أم رجاء بحدة :

ـــ يجوز أن ابنك سمع مزاحاً من الجيران أو من ابنتي ،

أثناء بيعه الخضار فصدق الأمر ، لأنه مغفل ، وليست القصة سوى كلام فارغ وعبث لا طائل من ورائه .

ــ أيجوز المزاح في مثل هذا الأمر .

ــ افترضي الأمر جاداً ، رأيناك ورأيتنا ، وطلبك مرفوض . ادخلي وأغلقي الباب يا رجاء .

أنهت أم رجاء عبارتها ، ودفعت أولادها إلى البيت ، وصفقت الباب .

حملت نعيمة سلة الفاكهة على كتفها ، وخرجت مسرعة من الحارة ، من غير أن تلتفت أو تسأل ابنها حتى يلحق بها . وكان محب قد نجح في القبض على دجاجتين وضاعت دجاجتان خلف الأبواب .

لم يشعر محب في تلك اللحظة بألم لفقده حبيبته ، بل شعر بمقت وكره لتلك الوجوه الساخرة ، ولا سيما أنه رأى شحوب وجه أمه ، وارتعاش شفتيها ، فأدرك ما كانت تعانيه من ذل وإنكسار ، بينما واصل سكان المدينة هزءهم ومرحهم طاردين أمه بخشونة .

أفلت محب الدجاجتين ، واتجه نحو كومة من الأحجار ، والتقط بعضها وراح يرشق نوافذ منزل رجاء ، فأصابت الحجارة زجاج النوافذ ، وحطمت الزجاج وتناثرت الشظايا في الهواء ، وسقطت إلى الأرض .

اختفت الوجوه المطلة ، وسمع صراخ الأمهات خوفاً على أولادهن ، وحدث ذعر مفاجيء ، وصار من الممكن أن يخرج عدد من الرجال ليواجهوا محباً ويوسعوه ضرباً ولكماً ، لولا أن محباً أطلق ساقيه للريح ، وفر هارباً يستحثه خوفه من انتقامهم ، فاجتاز في لمح البصر مسافة كبيرة ، وواصل الركض حتى بلغ حقله ، واختبأ بين الأشجار التي سترته عن العيون ، ومايزال يلهث كحيوان أنهكه التعب .

○

مرت ساعات على محب وهو مختبيء في مكانه ، يستعرض ما جرى له ولأمه في الحارة أمام منزل رجاء ، ويتساءل :

ـــ هل رفضت خطبتي **ببساطة وبسرعة** عجيبة ، حتى أنني لم أدرك كل التفاصيل ؟؟ هل يذوب حب نما في رعاية وحنان بين اثنين في لمح البصر ؟ هل إنهارت أحلامي إلى الأبد ؟ كيف أنسى سلامها وبسمتها ؟ بل كيف ابتعد عن حارتها وامتنع عن لقائها ؟؟

لم يصدق محب ما حدث وظنه حلماً لا واقع له .. لكن ثوبه الممزق خلال فراره الأخير ، كان يؤكد له الواقع ، ويعيد إلى ذاكرته مشهد أمه المسحوقة قرب باب رجاء ، ويغرقه في اللوعة والحزن .

ـــ ليتها طلبت مالاً كثيراً ! .. ليتها طلبت المستحيل إذن لحققته لها مقابل حبها ؟ .. أما أن تتنكر لحبي ، فهذه إساءة بالغة وجرح لا يندمل .

لقد سخرت من أعز مخلوق لديه .. من تلك الأم المسكينة التي طالما صبرت على طيشه ، وكانت عوناً له في مرضه وحزنه .. لقد رآها وهي تضحك على أمه . فكيف سيقابل محب وجه أمه وعينيها وشعرها الأبيض ، ويلمس أصابعها ، ويضع رأسه في حضنها المريح . بل كيف سيطيب

له العيش بقلب أدماه **جحود الحبيبة** ، وبنفس **معذبة** أسقمها الخجل والكرامة المهانة .

نبض فؤاده نبضاناً شديداً ، ونفث أنفه دماً أحمر ، اختلط مع التراب فبدا بشعاً ، وازداد الهيجان في عروقه . فمد يده وحطم الأغصان القريبة منه وبقي التفكير في رجاء يرهقه ، واستمر الضنى ، وظلت مكابدة الآلام ، ولم تهدأ نفسه .

غربت الشمس ، وبقيت أمه معتكفة في المنزل ، وبقي محب في الحقل ، نهض وخرج من مكمنه ، واقترب من شجرة كان قد حفر على جذعها اسم رجاء ، فانحنى على الإسم ولثمه باحترام وحب بالغين .

جال في الحقل ، فعادت الذكريات الحلوة إلى خاطره ، لقد أرجحها مراراً تحت شجرة الجوز ، وأعطاها الوردة هناك ، وكانت تستريح هنا ، ففي كل مطرح من الحقل ما يثير وجده ، ويجدد شوقه .

اقترب محب من شجيرة الورد ، فرأى وردة جميلة عليها ، فجذبها بعنف غير مبال بشوكها الذي أدمى راحته ، وراح

يمزقها بعصبية وينثرها في الهواء، فلم يعد بحاجة إليها، بعدما فشل حبه. وسمع شدو بلبل فرماه بحجر وفر البلبل مذعوراً، وأسرع محب إلى العرزال، وتناول فأساً وهجم على شجرة الجوز التي كانت تحمل أسماء المحبين، وأهوى على جذعها بالفأس يضرب بشدة.

أنّت الشجرة تحت ضربات الفأس، ووجد محب لذة في تحطيم ذلك الجذع الذي حمل طويلاً أسماء العاشقين، فاشتد ساعده، ووجه ضربات عنيفة، حتى شق جذعها شقاً عميقاً، وطقطقت الشجرة المسنة وهوت بصوت داو، وعاد السكون.. وأدرك محب أن عليه حتى يزيل اسم رجاء من الحقل أن يحطم معظم أشجاره.

غلبه شقاؤه، وأنهك العذاب عقله، فترك الفأس، وسار والساقية حتى بلغ الجدول الذي انفصلت عنه فتابع مجرى الجدول مسلوب الإرادة مأخوذاً بجريان الماء، متجهاً نحو النهر العميق.

تألمت نعيمة من الإهانات، وتألمت من أجل وحيدها، فلجأت إلى المنزل وانزوت فيه، ولم تخرج إلى ملاقاة محب، حتى لا تزيد في عذابه، فتركته حتى تهدأ عاطفته وتسكن نفسه. ولا سيما أنها شعرت بفرح خفي لخلاصها من رجاء عوضها عن ألمها، وأوحى إليها بإمكان زواج ابنها من ابنة أختها.

أطلت نعيمة من النافذة مراراً على محب، وراقبت سلوكه، وشاهدته حين حمل الفأس وحطم الشجرة، ولكنها حافظت على هدوئها، ولم تحاول أن تصيح بابنها، أو أن تنتهره، فقد تخلص محب من تلك الفتاة وأسرتها الفقيرة التي لايوجد لديها ما تفاخر به، وتتصرف بعجرفة، ولا بأس في أن يحطم شجرة أو اثنتين من أشجار الحقل.

كان سقوط الشجرة مروعاً فدوى قصفها عالياً، وخيل للأم المسكينة أنها سمعت صراخاً مؤلماً، فوجف قلبها من الهلع، وفرقت نفسها، فأسرعت إلى الحقل ولما لم تجد محباً تحت الشجرة، شكرت الله على سلامته، ولكنها ظلت قانطة وأحست كفاً صلبة تضغط على قلبها.

تنبه إحساس الأم المرهف في خلد نعيمة، فانتفضت مذعورة، تبحث عن شبح وحيدها في الحقل، وارتعشت حين لم تره، ورأت الفأس ملقاة على الأرض، وحدثتها الفأس عن اليأس الذي أصاب ولدها، فركضت نعيمة في اتجاهات عديدة وصاحت عالياً.

ــ يا محب .. يا محب .. أين أنت يا ولدي.

مرقت نعيمة عبر السواقي وأغصان الأشجار، غير آبهة، وخاضت في الوحل، وهي تكرر صياحها، حتى بح صوتها ولم يعد قادراً على الإنتشار يخنقه لهاثها ونحيبها الدائمان.

يسير نهر «تورا» وهو واحد من فروع بردى العتيدة، في محاذاة الجادة الرئيسية المنحدرة من جبل قاسيون المطل على مدينة دمشق، وبعدما يتقاطع النهر مع الجادة الرئيسية، ينحرف عن البيوت، ويتابع سيره في الحقول.

تظل مياه هذا النهر ضحلة في معظم أيام السنة، وخاصة في فصل الصيف، فلا يخيف النهر سابحاً، ولا يغرق شاباً، فلا خطر منه، إلا عند تقاطعه مع الطرق الصاعدة نحو

قمة الجبل، حيث تنشأ دوامات عنيفة بين مسافة وأخرى، تشرق الماء عبر القناطر الضيقة المقامة فوقه.

بلغ محب النهر عند تقاطعه مع الطريق المؤدية إلى حي الأكراد وكان الماء ينساب بهدوء ضمن مجرى النهر، حتى يبلغ القنطرة المقامة فوقه فيصطدم الماء بجدرانها ويدور ويضغط بشدة.

حدق محب في القنطرة المبنية من الحجر الصلد، فلم يميز المشهد بوضوح لأن العتمة ازدادت بعد اختفاء الشمس وراء الجبل، ولم يرَ غير فجوة مظلمة فاغرة فاها لتشرق الماء بعنف وتدفعه بعنف أشد.

نزل محب في الماء، وكان الماء دافئاً من حرارة الشمس في النهار، فلم يرتعش من برودة الماء، وكان ما يزال مأخوذاً فاقد الرشد، فاقترب من القنطرة وسمع هدير مائها المرعب، فتنبه وعيه، وخيل إليه أنه رأى جسداً ممزقاً مدمى يدور مع الدوامة ويرتطم بقاعدة القنطرة، فجمد في مكانه فزعاً، ولم يبقَ سوى خطوة واحدة حتى تشفطه الدوامة، لتدفعه مهشماً من الجهة الثانية.

جبن محب أمام رهبة الموت، وتذكر أمه، فصرخ مستغيثاً بها :

ـ أمي .. أمي أنقذيني يا أمي .

بكى محب، وهو مغمور في الماء حتى وسطه، وكرر النداء لأمه، وكانت نعيمة قد وصلت إلى ضفة النهر، وسارت في محاذاته، تنظر بهلع إلى الماء المنساب في مجراه، فسمعت نداء ابنها، فهرعت إليه، ورأته واقفاً يبكي قرب الدوامة، فنزلت في النهر وألقت نفسها في الماء، ومدت يدها نحوه صارخة :

ـ محب .. محب، خذ يدي يا محب .

أمسك محب يدها، فاطمأنت نفسه، ورجع خطوة إلى الوراء، فدفعهما الماء معاً، فاحتضنته، وشعر محب بالخطر على كليهما، فجاهد بعزم لينحرفا معاً في اتجاه شجرة صفصاف، كانت فروعها متدلية فوق صفحة الماء .

التقط محب طرف الفرع بعد جهد، وجذب أمه

نحوه، التي أمسكت الفرع أيضاً . فتلاشى خوفهما، واستراحا قليلاً ثم خرجا من النهر .

○

رجعت نعيمة مع ابنها إلى البيت، وكان محب يخب في سيره، مطرق الرأس، متخلفاً عن أمه قيد خطوة كصبي أتعبه السير، وتشبثت نعيمة بيده طوال الطريق، وكأنها تخشى إن أفلتته ألا تدركه .

عجلا بالدخول إلى المنزل، وأحست نعيمة بجبن ابنها، فجرته كطفل مدلل إلى المطبخ، ونضت عنه ثيابه، وسكبت ماء نظيفاً على رأسه وجسمه وحاول محب أن يخفي عورته خجلاً بيده، وأن يبعد أمه، فلم تأبه بحركته، ولم تتهاون في معاملته، حتى لفته بالمنشفة، وأمرته أن يسبقها إلى الغرفة، فانصاع إلى أمرها دون جدل، ودلف إلى غرفته حافي القدمين مهرولاً كحمل وديع .

لم يتناول محب طعاماً طوال النهار، ولم يغب هذا الخاطر

عن ذهن أمه ، لكنها أرادت أن تتخلص من ثيابها الموحلة المبللة وتغتسل ، ثم أتته بالطعام ، وحدقت إلى وجهه ، فعرف أن امتناعه سيوقعه في حرج ، فاقترب من السفرة وراح يزدرد الطعام ازدراداً .

استلقى محب على فراشه الدافىء الوثير ، ونامت أمه في غرفته ، واطفىء النور ، وبقيت العيون مسهدة ، تحدق إلى السقف ، وتتطلع إلى الجدران ، وانتابت أفكار متشابهة ذهن الأم وابنها ، وكان كل واحد منهما يعلم بسهد الآخر ، من قحة خفيفة تصدر عنه ، أو آهة عذاب تفلتها شفتاه ،

ابتهلت نعيمة إلى الله :

— ربي احفظ لي محباً .. أو خذني إلى جوارك **قبله** .

ـ ٥ ـ

السور العتيد

طلع الصباح ، واستيقظت دنيا النهار ونامت دنيا الليل ، فاندست الأفاعي في أوكارها ، وانزوى الذئب ، وتعلق الخفاش مدلياً جسمه في الهواء ، بينما أخرج الأرنب رأسه من جحره ، وسرحت الدجاجات ، وتفتحت أزهار الختمية والشب الظريف ، وتوجه عباد الشمس نحو معبوده .

لذعت أشعة الشمس المنكسرة عبر زجاج النافذة وجه محب وساعده ، فتململ وتقلب في فراشه مراراً ، ثم تثاءب وتمطى ونهض ، فرأى أمه ما تزال نائمة ، ومستغرقة في سبات عميق .

عادت ذكرى البارحة إلى ذهن محب ، وكان أمس يوم

خطبته، وكان يوماً قاسياً وحافلاً بالمشاكل، فلم يصدق محب أن يوماً واحداً لم ينقض بعد على معاناته الشديدة في أمسه الفائت.

أطل على الحقل... وكانت شجرة الجوز المقطوعة، ما تزال مرمية على أرض الحقل، مكسرة الفروع والأغصان من الإصطدام بالأرض، لكن أوراقها غير ذابلة، لأن النهار مازال في بدايته.

أحس محب ألماً وحنيناً إلى تلك الشجرة، التي كانت عشه، يحتمي بها في طفولته، أو يستريح في ظلها، ويتنصت إلى همس أوراقها، وكأنها تحدث وحدته.

كانت لها أصوات مؤنسة، عندما تهب الريح، فتصطفق أغصانها الغليظة، ويسمع حفيف أوراقها اللينة. وكان لقشرها دغدغة خدرة عندما يحك ظهره به.

لم يتصور محب أن تقدم يداه على تحطيم هذه العجوز التي نام في عبها، فأبعد يديه عن النافذة كأنهما ملوثتان:

ـــ أنا قطعتها.. أنا قاتلها.

أدار محب وجهه عن الشجرة والنافذة، فوقع بصره ثانية على أمه وعلى حضنها وعبها، فتأملهما ملياً، وتأمل وجهها الذي نالت منه السنون، فبدت له عجوزاً متعبة، فقال لنفسه:

ـــ سأكرس أيامي لإسعاد هذه العجوز المسكينة، ولن أحملها هماً بعد الآن، حتى لا تموت بسببي، كشجرة الجوز.

استيقظت نعيمة متأخرة على غير عادتها، ونظرت فرأت فراش ابنها فارغاً، فلم تضطرب وإنما اكتفت بالنداء، ووقفت حين لم يجبها صوته واتجهت نحو النافذة، فشاهدت محباً يعمل بجد في الحقل كعادته إثر كل حادث يقع لهما.

جمع محب كل اللوازم لإتمام السور، وما زالت تتجاذبه رغبتان، تحضه الأولى على أن يبتعد عن الناس، ففي قلبه جرح لم يندمل، وترجوه الثانية أن يبقي حقله مفتوحاً للمتنزهين، فقد يجد السلوى في صحبة فتاة غير رجاء.

حملت نعيمة طبق الطعام وإبريق الماء، واتجهت إليه، فشاهدت الترتيبات التي أنجزها محب منذ الصباح. ففرحت ونادته ليأكل معها. فلبى دعوتها مسرعاً، وأكلا سوية.

لم يتردد محب عن متابعة العمل، فما كاد ينتهي من تناول إفطاره، حتى أسرع إلى الألواح فشدها وثبتها على حافة الحقل في مكان الفجوة الباقية، ثم هال التراب في الفراغ بين الألواح حتى امتلأ تماماً. فصب الماء فوق التراب ثم صعد فوق الألواح، وراح يخبط بالمدق بقوة، ليكتل التراب قبل أن يجف.

صارت شمس الظهيرة مرهقة، وتفصد جلده عرقاً، ووهنت عضلاته، وبقي يعمل مغالباً تعبه، مصمماً على إغلاق حقله في وجه المتنزهين من سكان المدينة. وكاد الحقل أن ينغلق على محب ونعيمة، لولا الخيط الخفي الذي يربط الواقع بالغد المجهول، فبقي السور العتيد مشدوداً إلى المستحيل.

مر جار يركب حماره، متجهاً إلى حقله، وشاهد محباً منكباً على إتمام السور، فضحك من غفلته، ولوى عنان حماره، واقترب من موضعه فوق السور، وقال له:

— على العافية يا جار..

— الله يعافيك.. حول

— قصدت محادثتك لأسألك لم ترهق نفسك بإكمال سور حقلك، وكأنك لست من أهل المنطقة.

— ماذا تقصد بكلامك؟

— ألم تسمع الأخبار؟

استغرب محب من جاره أن يفكر في مؤانسته في هذا اليوم، فيحدثه عن الأخبار، وليس لدى محب ولع بها، وخشي أن يكون على علم بخبر خطوبته، وفشل حبه، فقصده ليسخر منه. فنظر إليه بحيرة وقال:

— لست شخصياً ممن يتسقط أخبار الناس أو يهتم بالصحف، إنني أبعد الناس عن طلب المشاكل.

ضحك الجار وقال:

— إنني لا أستغرب أن أراك تعمل في إتمام السور، فتصرف جهداً ومالاً لا طائل من ورائه، سيعتبرك غيري مغفلاً بل مجنوناً.

لاحظ الجار اهتمام محب بحديثه، فصمت قليلاً يريد أن يتشفى من عدم مبالاة محب بالأخبار، فألقى محب قطع

الزجاج التي كان يثبتها في حافة السور ونزل إلى الأرض وأمسك بعنان الحمار ورجاه أن يتم كلامه ، فاسترسل الجار قائلاً :

— سمعت خبراً منذ شهر تناقلته الألسن في جوارنا ، ولكنني لم آبه به آنئذ .

— عجل بالله .. ما هو الخبر ، وما علاقته بالسور ؟؟

— مهلاً مهلاً .. سأشرح لك الأمر .. كنت الآن في المدينة ، فقررت أن أتأكد من صدق الخبر ، فزرت صديقاً مخلصاً لي يعمل في المحافظة وسألته فأجابني بالإيجاب .

كظم محب غيظه منتظراً ، أن يفرغ جاره من لغوه الفارغ ، ليعلم منه ملابسات القضية ، ولكن الجار قطع القصة ليسأل محباً :

— هل الأرض مسجلة بإسمك أو بإسم أمك ؟؟

— إنها مسجلة بإسم أمي .

— بإسمك أو بإسم أمك ، غير مهم .. إنزل إلى المحافظة واستلم إنذاراً كهذا الإنذار .

لوح الجار بورقة أمام عيني محب ، فخطفها محب والتهمها بعينيه :

إلى السيد أحمد العبيدي يعتبر إستملاك العقارات والأراضي الواقعة تحت تصرفك ذا نفع عام ، ويجب عليك أن تراجع المحافظة خلال شهر من إستلامك هذا الإنذار ، للإتفاق معك على الإخلاء والتعويض المناسب .

أعاد محب الإنذار إلى جاره ، ولوح قبضته في الهواء وهدد غاضباً :

— هذا الحقل يخصنا وحدنا ، سأتم السور ، ولن أدع مخلوقاً يخترق حقلي مهما عظم شأنه .

ضحك الجار ، ولكز حماره ، وقال وهو يبتعد بصوت مرتفع :

— أنت مجنون يا محب .. أنت محب للمشاكل بدون سبب .. لقد ارتفعت أثمان الأراضي كثيراً في هذه المنطقة بعد صدور مخطط التنظيم .

واسترسل الجار يحدث نفسه :

— إنه أبله .. لا يدري كم يساوي حقله بعد التنظيم !! ليتني كنت أملك حقلاً مثله لأبيعه للشيطان .

○

شعرت نعيمة بألم في جنبها، عزته إلى حادث الأمس، وما كان من خوفها على وحيدها، واللحاق به إلى النهر، وعودتها مرهقة، فبقيت في المنزل ترقب محباً مكبرة فيه رغبته وجده. وتمنت لو يسكن الألم برهة لتلحق بمحب وتساعده على قدر استطاعتها.

فركت خاصرتها بمرهم، وتناولت جرعة من وصفة أختها الطبية، واستغربت بطء تأثير الدواء في رفع السوء عن جسمها، وتسكين ألمه، فقد تعاطت الجرعة مراراً في أحوال كهذه وحصلت على الراحة سريعاً. بينما ازداد الألم في هذه المرة، وبدأ الشك يراودها في الشفاء.

تمددت نعيمة في الفراش، واتكأت على مرفقها، فخف الألم قليلاً، ودخل محب عليها، بائساً متقلص القامة، كمتسكع يتيم، فعجبت أمه لحاله وسألته:

ــ ما دهاك يا ولدي..؟ هل إنهار سورك الذي بنيته..؟ قل ما بك ؟

ــ هل يستطيعون يا أمي أن يسلبونا الحقل، بإسم

التنظيم، قولي يا أمي أنا بائس، لأني سمعت من جارنا حديثاً آلمني.

سمعت نعيمة كلمة التنظيم، وكانت الشائعات قد رددت هذه الكلمة قبل عدة سنوات، ثم ماتت الإشاعة ونسي الفلاحون التنظيم، ففكرت قليلاً وقالت:

ــ ولدي.. لا أعلم كيف سيتم التنظيم، لكن حقولاً عديدة زالت من قبل وكان حقلنا آنذاك أبعد مسافة عن المدينة مما هو عليه الآن.

ــ هل أستطيع الرفض يا أمي والإحتفاظ بحقلي، هل أقدر على المقاومة أنا مستعد للدفاع عن الحقل.

كان محب يتكلم محدقاً في وجه أمه، متمنياً فرجة أمل، فقالت نعيمة:

ــ لا يا محب، إياك أن تفكر في النزاع مع الحكومة، وإلا عددت مجنوناً وانتهى أمرك إلى السجن.. سنقبض تعويضاً عادلاً لقاء البيت، وسيرتفع ثمن الأرض ويأتي تجار كثيرون لشرائها..

ــ أين سنذهب عندما نتخلى عن البيت والحقل ؟

ــ ستشتري حقلاً بعيداً عن المدينة ، أو تشتري بيتاً في المدينة ، ونصبح من سكانها ، وتجد لك عملاً فيها .

ــ أنا لا أتقن غير الفلاحة ، سأشتري حقلاً غير هذا الحقل .

ــ فكر بروية يا محب .. هذه فرصة لنا لنعيش ضمن المدينة ، أنا مريضة وسأعجز عن استثمار الحقل معك .

ــ صرت أكره المدينة وأهلها .

ــ عقدتك المدينة ، ولكنك ستجد عيشاً رغيداً فيها ، وتنسى آلامك . نحن أغنياء يامحب ، فلدينا حقل واسع ، ولدينا مال مخبوء .

ابتسم محب وهو يتخيل نفسه واحداً من سكان المدينة ، ثم سار إلى النافذة وتأمل الحقل ، فشعر بلوعة وقال :

ــ مازلت أهوى هذا الحقل ، وأتمنى البقاء في ربوعه ، فكيف أجبن حين أرى المداحل الضخمة تدمر أشجاره ، وعرزاله ، وكل جميل فيه .

قاطعته أمه معترضة على حديثه :

ــ كنت ياولدي تحب شجرة الجوز الهرمة ، ولم يمنعك

حبك لها من أن تضرب جذعها بفأسك ، وتقطعها .. ومازالت مرمية هناك .

شعر محب بذنبه تجاه الشجرة ، ولم يجد رداً مفحماً فقال :

ــ كنت في غضب شديد .

ــ كان غضبك أصدق منك يا محب ، قطعت الشجرة لتقطع صلتك بالحقل ، حطمتها لتحطم انتماءك إلى الأرض . لقد كان والدك محقاً في حرصه على إقامة السور ليحول بينك وبين تطلعك إلى المدينة .

تذكر محب وصية والده :

ــ أوصيك خيراً بأمك ياولدي ، وانتبه إلى حقلك ، سوره من أربع جهاته تأمن شر أشرار المدينة .

شهد محب على نفسه بتهاونه إزاء الوصية ، فقال :

ــ ماذا كنا سنفعل الآن حتى لو أتممت السور ؟؟ .. نحن نعيش قدرنا .. تذكري يا أمي ، إنني أحبك حباً جماً ، وأنت تحبينني بدورك ، ولكن حبي لم يمنعني من مخاصمتك ، ولم يمنعك حبك من ضربي .

- ٦ -

محاورة من أجل الإتفاق

صدر قرار تنظيم منطقة المزرعة والحقول المتاخمة، عن محافظة دمشق في أوائل الخمسينات، وانتشر الخبر من بناء المحافظة، وشغل أحاديث الناس كلهم، في البيوت والمقاهي، وتناقلته الألسن إلى الكروم والبيادر، وحتى الذين لم يطل القرار أرضهم أو عقارهم، ولم يستلموا إنذاراً بالهدم، تحدثوا ملياً في الموضوع.

رجع المعلم سعيد قدري -أبو رجاء- إلى منزله مشغول البال حاملاً إنذاراً بالهدم والإخلاء فقال لأسرته:

- ستهدم منازل الحارة خلال أشهر قليلة، ويجب أن نبحث لنا عن مسكن غيره، قبل أن ترتفع الأجور.

قالت رجاء بصوت مرتفع:

— الحمد لله الذي أبعدنا عن هذه الحارة، فما أكثف غبارها، وما أكثر حشراتها وخاصة في الليل.

— كنا مستورين في هذا المنزل القريب من السوق، ومن المدارس، لن نجد مثله في المدينة، سنضطر إلى السكن في ضواحي المدينة.

سألت الزوجة مستفسرة:

— إلى أين سننتقل؟

— سأحاول الحصول على بيت صغير في مشروع الإسكان في المزة.

كانت «المزة» منطقة نائية عن دمشق، وهي أشبه بقرية ريفية فشعرت رجاء وأخواتها بخيبة الأمل، وبتن ليلتهن قلقات على مستقبل زواجهن بعرسان أثرياء من المدينة، فقد كان للمنزل أثر واضح في تعيين العريس المنتظر.

انشغل بالخبر أيضاً عبد الصمد المنير، زوج أخت نعيمة، ولاسيما أن حقله وقع ضمن مخطط التنظيم، فسعى إلى مقابلة التجار والسماسرة، وتحدث إليهم في موضوع البيع

والشراء، ودرس بتروٍ العروض التي حصل عليها، ثم قر رأيه على عقد اجتماع في بيت نعيمة ليبحث الموضوع معها ومع ابنها من مختلف نواحيه.

اتكأت نعيمة فوق عدد من الطنافس، وبقيت مضجعة طوال السهرة لأن الألم مازال يعمل في جنبها، واستقبل محب خالته وزوجها عبد الصمد وقدمت معهما سميرة ابنة خالته.

كانت خالة محب خديجة السروجي، شقيقة أمه «الروسية» التي تصغرها مباشرة بسنتين، لكنها كانت تبدو أصغر من والدة محب بسنوات، وكانت تكنى بأم سميرة، على الرغم من أن سميرة ليست بكرها.

كانت ملامح عديدة في وجه الأختين متطابقة، لكن الملامح المتطابقة أوضح في وجه خالته، وكأن أمه الشقيقة الكبرى، أنموذج فاشل في مشروع الإنجاب الذي انتظم في الشقيقة الصغرى. وكان لدى خالته لامبالاة في أسلوب حديثها وسلوكها في الحياة، فلا يهمها أن ترزق بطفل في كل

سنة وأن تفقده في السنة ذاتها ، فأنجبت كثيراً واحتفظت بخمسة أولاد .

وكانت سميرة على نقيض أمها تماماً ، فتختلف عنها بملامحها وبسلوكها ، فهي أقرب إلى أبيها شكلاً ومضموناً ، وكان أبرز ما في الوالد عيناه الواسعتان وفمه الواسع أيضاً .

كان والد سميرة أغنى من والد محب بالاضافة إلى زوجته التي ورثت حقلاً كحقل أختها ، لكن الإرث الذي سيوزع بين أولاده الخمسة إثر وفاته ، لن يؤمن لابنائه مستقبلاً جيداً ، فكان محب وحيد أمه ، ثرياً في نظر خالته وصيداً ثميناً لابنتها سميرة .

قال أبو سميرة :

— نحن أقرباء في قيد النفوس فقط .. فمنذ أمد طويل لم نحظ بزيارة هذا الفهد .

وأشار إلى محب فقالت زوجته :

— أنا عاتبة عليك يا محب وكذلك أولاد خالتك لانقطاعك عن زيارتنا .

واسترسل زوجها موجهاً الكلام إلى نعيمة :

— الحق عليك .. يا أم محب .. عندما تزورين أختك اصطحبي محباً معك ، لتقوى الصلة بينه وبين أبناء خالته .

بقيت أم محب صامتة ، وصمت محب أيضاً ، فقالت الخالة :

— لقد أفسده والده — رحمة الله عليه — بإرساله إلى المدرسة ، في صغره ، فصار متكبراً على بنات خالته ، بعدما نال الشهادة الابتدائية ، ولم نعد نراه عندنا .

قال عبد الصمد معترضاً على زوجته :

— ليس محب متكبراً على أحد .. إنه نمر شاطر ، لا يريد أن يضيع وقته سدى ، فقد قام وحده بأعباء الحقل . أنا لم أرَ في حياتي زنداً قوية تشق التراب بسكة المحراث كزند هذا الضرغام .

استمع محب إلى كلام عبد الصمد ، وظل صامتاً ، ولكنه كان يجيب بينه وبين نفسه ، على كل الاسئلة المطروحة ، فحدث نفسه مراراً :

ـــ لماذا لا يتركني وشأني .. أنا حر ، ولا أريد أن أزور بنات خالتي وأنا هر ولست ضرغاماً .

واستمعت نعيمة إلى حوارهما ، وكانت تعلم بدورها ، أن هذه الثرثرة من الاثنين مقدمات ، ريثما تطرق شفة انسان الموضوع الذي جاء من أجله ، فيخوض فيه . فتريثت لتكشف سبب البشاشة والاهتمام الواضحين بمحب ، وسبب علبة الحلوى التي حملها الصهر العزيز تحت أبطه .

قال عبد الصمد فجأة :

ـــ سأزرع في السنة القادمة قمحاً من بذار إيطالي ، فقد كان موسمه جيداً في العام المنصرم .

أومأت نعيمة برأسها ، لكن محباً علق بسذاجة على الموضوع :

ـــ لقد صدر مخطط التنظيم ، ولم يبق أحد يجهل هذا الخبر .

استدرك عبد الصمد متصنعاً البلاهة ، وضحك ساخراً من غفلته ، وبرقت عيناه فعرفت نعيمة منهما مكنون

نفسه الذي جاء ليبحثه بأسلوبه المعقد الذي لا غنى لصهرها عنه . فطلبت نعيمة من '-ها قائلة :

ـــ اذهب يا محب ، يسبقك الرضاء ، وجهز لنا القهوة ، لأني عاجزة عن النهوض .

لم تعجب هذه اللفتة عبد الصمد ، فحلف ايماناً وأصر على بقاء محب ، وأعلن عن عدم رغبته في شرب القهوة ، وأصرت نعيمة على فنجان من الشاي ، واحتار محب بين إلحاح والدته ورفض زوج خالته ولم ينقذه من ورطته سوى اقتراح ابنة خالته ، التي تبرعت بالقيام بالعمل بدلاً عنه . وكان بقاء محب غاية عبد الصمد ، فقبل اقتراح ابنته ، لكن خالته أبدت رأياً مخالفاً فقالت :

ـــ إلحق يا محب بسميرة ، لأنها لا تعرف أين تجد الشاي والسكر والفناجين .

رمى عبد الصمد زوجته بنظرة قاسية ، ووافق هذا الرأي نعيمة فصرفته بدورها ليذهب إثر سميرة ابنة أختها . ولم يجد عبد الصمد بديلاً عن الإذعان ، وقر رأيه أخيراً أن يوجه أسئلة صريحة إلى أم محب . فقال :

ــ هل قررت رأياً بخصوص **حقلك**، بعد صدور قرار التنظيم ؟.. لأني محتار في وضعي .

ــ لم أقرر شيئاً في هذا الخصوص، مايزال لدينا متسع من الوقت للتفكير في هذه المواضيع الثانوية .. فلا يشغل بالي سوى مرضي في هذه الأيام .

ــ عافاك الله . سأبيع حقلي وأشتري بدلاً عنه أرضاً واسعة في الشمال، قررت أن أسافر نحو الشمال، لأن الأرض طيبة جداً هناك . ألديك رغبة في شراء حقلي ؟

عرفت أم محب أن صهرها لن يبيع الحقل، ولن يرحل إلى الشمال، فقد كانت معتادة على مكره، فيصرح بلسانه عكس ما يضمره في قلبه .

أجابت نعيمة ببرود :

ــ من أين لي ثمن حقلك، أتنتظر مني أن أبيع حقلي وأشتري بثمنه حقلك، ثم ماذا أفعل بحقلك ؟؟

قال عبد الصمد مداعباً نعيمة :

ــ البركة في المال المكنوز ياأم محب . أنا اقتصدت من

فائض المواسم، وعندي **خمسة أولاد**، ومصروفي أكبر من مصروفك، فكيف حالك ؟؟

وضحك بشدة حتى اهتز جسمه، فردت أم محب بخبث :

ــ عال .. مبروك .. لم لا تعمر أرضك إذن ؟؟

ــ ليس عندي مايكفي لإنهاء عمارة واحدة .. ولن أبدأ ببناء شيء إلا إذا تحققت من قدرتي على إنهائه .

ــ تستطيع أن تستدين أو أن تشارك من يقرضك المال .

انتفض عبد الصمد وأجاب :

ــ لا أريد أن أشارك أحداً، ولا أريد أن أستدين من أحد .. عانيت من الشراكة والإستدانة، إنهم لصوص .. نعم كلهم لصوص .

○

استغرق عبد الصمد في الجدل مع أم محب، لأن

الموضوع هام بالنسبة له بينما انصرفت زوجته خديجة إلى متابعة محب وابنتها، عبر النافذة المجاورة لها، وهما يدوران معاً في المطبخ، لعل العمل المشترك يخلق لوناً من الإنسجام بينهما، يمهد الطريق أمام زواج ابنتها من محب.

لم يكن إعداد الشاي صعباً على سميرة، بعدما وضع محب لوازمه أمام عينيها، ولكنها تعمدت التريث، فأبقت النار هادئة، لتستبقي محباً إلى جانبها، وكانت تنفذ توصيات أمها، مستعينة بخبث موروث عن أبيها، فقالت لمحب بخجل مصطنع:

— تحدثني أمي عنك، ممتدحة سلوكك وأخلاقك في كل مناسبة.

نظر محب إلى ابنة خالته، محاولاً أن يهضم كذبها الواضح، فكيف تمتدح خالته سلوكه، بينما كان محب يشعر بالتقصير إزاء أمه، فلم يجبها بكلمة، فبقيت تنظر إليه، ثم أصرت على غسيل الفناجين، ولم تكن بحاجة إلى الغسيل وعمدت من أجل ذلك، إلى رفع أكمامها الطويلة إلى ما فوق المرفقين أمام عيني محب فشاهد محب بشرتها، ولاحظ أن بشرة

رجاء تفوق بشرة ابنة خالته نعومة وأنصع بياضاً، فلم تلوحها الشمس في الحقول.

أصاب الرذاذ ثوب سميرة، حتى أصبحت القطرات اللؤلؤية تبرق بوضوح على نسيجه، ولما كانت يداها مبتلتين سألت سميرة ابن خالتها أن يمد كفه إلى جيبها عند الخصر، ليخرج منديلها منه.

أدخل محب وجلاً أصابعه بين طيات ثوبها عند الخصر، فلم يعثر على المنديل، وتذكرت سميرة أن المنديل موجود في جيبها الآخر، ففتلت بدلع، وبقيت رافعة ساعديها إلى الأعلى، بينما انتقلت راحة محب إلى الجهة الثانية، وأخرجت المنديل.

شعر محب بإحساس التفتح اللذيذ، الذي عاناه مرة من لمس جسد رجاء عندما لمست أصابعه جسم سميرة وهو يخرج المنديل، ولكنه ظل إحساساً مختصراً فلم تصل به الحال إلى النشوة التي استمرأها في المرة الفائتة.

أطلق إبريق الشاي صفيراً، واندفع البخار من فوهة

خرطومه الضيق، يريد الرحيل كقطار يغادر المحطة، وانتبه الاثنان معاً محب وسميرة، فاتجها إليه معاً مندفعين بسرعة. أطفأت سميرة النار، ورفع محب الغطاء، لقد أسرعا إلى الدعوة دون حذر، ليحولا دون طغيان الشاي على جوانبه، فلم ينتبه أحدهما إلى الوضع الشاذ الذي اتخذاه بالعجل.

كانت يد محب ممتدة من تحت إبط سميرة وأمام صدرها، بينما كانت يده الثانية موضوعة على كتفها، وأما سميرة، فكانت مستندة بظهرها إلى صدر محب وقد انحنى محب فوق كتفها متطاولاً ليصل إلى الإبريق، لقد شعرا بالوضع الشاذ، عندما انتهت الأسباب، وحاولت سميرة الإلتفات، فأصبحت بين ذراعي محب.

مرت فترة صمت، لم ينبث أحدهما بكلمة ولم يأت بحركة، مبتعداً أو ملتصقاً، لقد احتفظا بما كانا فيه للحظات، ولم يعرف محب ما يفعله فبقي مرتبكاً، وخجل من نظرات ابنة خالته التي لمعت عيناها، ثم استدركت وقفتها فانفلتت من بين ذراعيه، وابتعدت عنه حتى عتبة المطبخ، حيث وقفت ونظرت إليه.

كانت سميرة مضطربة مما حدث لها، فلم تعد مهتمة بإعداد الشاي أو القيام بما أوصت به والدتها، فهي تجهل كل شيء عن هذه الأحاسيس التي يولدها الإحتكاك برجل. شعرت بخطورة الأمر، فألقت نظرة أخيرة على محب وانسحبت منضمة إلى أمها، وقرأ محب في نظرتها المعنى الذي شاهده في عيني رجاء من قبل، في أول لقاء لهما عند الساقية.

عاد محب إلى الغرفة حاملاً الشاي، فلاحظ كيف أصبح الجو مشحوناً بين المجتمعين، وخشي أن تكون سميرة هي التي عكرت صفاء الجو بحديث مختلق، فتطلع محب إلى أمه فوجدها غاضبة، وبقي عبد الصمد مقطب الجبين وهو يتناول فنجان الشاي، واضطربت يدا سميرة فاندلق شيء من فنجانها في الصحن.

خيم الصمت فترة طويلة، ولم يسمع سوى أصوات رشف الشاي الساخن بين حين وآخر. حاول محب أن يتصرف بهدوء، ولكن سميرة ركزت نظرها عليه حتى أنه كان يحس بنظراتها دون أن يلتفت نحوها.

قال عبد الصمد بعد الصمت الطويل:

ـــ اسمع يا محب .. إن أمك امرأة متشددة .. وسيؤدي تشددها إلى ضياعنا جميعاً ، وخسارتنا خسارة فادحة .

قالت أم محب مقاطعة صهرها :

ـــ دع محباً جانباً وكلمني ، لأنك لن تستفيد من مكالمته .. أنا وحدي أملك حق التصرف في حقلي ، فلا تأمل شيئاً من محب .

قال عبد الصمد مستثيراً حماس محب :

ـــ هذه الأمور من اختصاص الرجال وحدهم ، وأريد رجلاً أكلمه ، ليت أبا محب موجود على قيد الحياة ، إذن لاتفقت معه دون جدل ، ألست رجلاً يا محب ؟

انتبه محب إلى حديث عبد الصمد ، وسره أن توتر الجو ناتج عن خلاف وقع في غيابه ، فاسترق نظرة نحو سميرة ، التي ابتسمت له ، فابتسم بدوره .. ولكنه لم يجب على سؤال أبيها ، فهو لا يريد أن يغضب أمه ، ولا أن يظهر دون شخصية ، ولم يرحم عبد الصمد حيرة محب ، فعاد يضرب على الوتر الحساس :

ـــ هل أنت رجل يا محب تستطيع تقدير مستقبلك .. ؟ أم أنك ولد تنتظر قرار أمك ؟

ـــ كنت غائباً ، ولا أستطيع أن أجزم بقرار دون أن أفهم الموضوع .

ـــ استمع إلي ، سأشرح لك الموضوع بالتفصيل ، لقد ارتفعت أثمان الأرض في هذه المنطقة ، لكن الإرتفاع بقي محدوداً ، بالنسبة للفلاحين المالكين ، لإقبال عدد كبير منهم على البيع ، بغية الرحيل إلى مناطق زراعية أخرى . فصار السعر الذي نسمع به لا نجد من يدفعه لنا ، لأن تجار الأراضي أمهر منا في عقد الصفقات . نحن مغفلون وعاجزون ، ولكنني لن أسمح لأحد أن يسرق أرضي أو يستغل وضعي ، لذا أشرت على أمك أن نعمر أراضينا معاً ، فتسلفني ما لديها من المال ، لنبني عمارة ، ثم نبيعها ونبني عمارة ثانية ، وثالثة وهكذا حتى نصبح من مقاولي المدينة المرموقين .

ظهر الرضاء على وجه محب ، وكاد يوافق على مشروع عبد الصمد ، لولا نوبة الألم الشديد التي أصابت أمه ، فصاحت متوجعة من مرضها ، وتقلبت في الفراش ، فاندفع

محب وأمسك يد أمه، التي سألته أن يتركها وحيدة لتستريح، فتمتم عبد الصمد بألفاظ مبهمة، تدل على عدم رضائه، على هذه النوبة المفاجأة لأنها ارجأت الموافقة على مشروعه.

ودع محب اقرباءه، وعاد إلى أمه، فوجدها أحسن حالاً فسألها محب:

ـــ ما رأيك بمشروع زوج خالتي ؟

ـــ مشروعه جيد، وقد اختارنا لقلة ما لديه من مال، ولبعد أرضه، سأوافق على المشروع، عندما يعترف بأفضلية أرضنا على أرضه، ويضع ذلك في الحساب.

ـــ عبد الصمد رجل قدير، فلم لا نتساهل معه، مقابل شطارته ولا سيما أنه قريبنا.

ـــ إنه قريبنا، ولكنه طماع، وسترى مقدار جشعه، عندما تتعامل معه سيسوي بين قيمة أرضنا وأرضه، وتمويله وتمويلنا، ويطلب أجراً خاصاً له مقابل سعيه وخبرته، ألم ترَ كيف اصطحب ابنته معه لتستجلبك إلى صفه. احذر مكره يا محب.

ـــ ألم تكوني راغبة فيها زوجة لي .. ؟

ـــ كنت سأخطبها لك، عندما كنا منفصلين، أما الآن، فنحن شركاء وستصبح سميرة طعماً من أجل الإتفاق. اسمع يا بني، سأحاول أن آخذ لك حصة أكبر من الأرباح حتى إذا سرقك في المستقبل، لا تهضم حقوقك كثيراً.

ـ ٧ ـ

التنظيم

صار منظر عربات النقل التي تنقل أثاث المنازل، مألوفاً في منطقة التنظيم، تقف أمام المنزل، وينقل الحمالون الأثاث بسرعة، ثم تسير العربة مشدودة إلى صدر حمّال مفتول العضلات، ويتبعها رب الأسرة وزوجته، وترافقهما طفلة تحضن دميتها الصغيرة.

أما القطة فتدور حول العربة مستفسرة، وتصدم الأرجل، ولا يأبه أحد بموائها الملهوف، وعندما تصل العربة إلى مدخل الحارة، يلتفت رب الأسرة ويقول:

ــ كنا نقطن في هذه الحارة، وكانت الحياة مقبولة، ولكن الأعوام انقضت بسرعة.

وتواصل العربة سيرها وتغيب في زحام المدينة، لكن

القطة تجمد عند مدخل الحارة، ولا تتبع العربة وتدمع عيناها، ثم تلوي ذنبها وتعود إلى المنزل الفارغ، لتتجول في غرفه.

انتقلت أسرة رجاء إلى البيت الجديد في المزة، ولم يبق في البيت القديم سوى القطة، التي كانت تموء حزينة في الليل والنهار، ولا تجد غير أوراق الدفاتر القديمة مبعثرة على أرض الدار، وأشياء عتيقة تالفة خلفتها الأسرة وراءها. فلم تلبث القطة طويلاً في المنزل، وغادرته والحشرات مبتعدة عنه.

وفد عمال التنظيم، يحملون المعاول والرفوش، ويدفعون عربات الجر الصغيرة، فكان منظرهم شبيهاً بفرق الإحتلال التي تتسرب دون نظام من جهات عديدة. وانتشر العملل بين خطين مستقيمين موازيين لشارع المدينة مجتاحين العوائق التي تعترض سبيلهم. لا يمنع جدار ولا شجرة ولا ساقية تقدمهم السريع، فسرعان ما تزول الجدران، وتقطع الأشجار، وتخنق السواقي في مجاري الأقنية المغلقة.

شاهد محب أشجار حقله مقطوعة مرمية، ورأى مدحلتين ثقيلتين تعملان في اتجاهين متعاكسين، فترج الأرض

تحت ثقلهما. واقترب من أولاد التفوا حول الشجر المقطوع، يسلخون الصمغ من قشره، فابتعدوا خائفين منه. لكن محباً ناداهم مطمئناً بابتسامة، وسمح لأيديهم الصغيرة، أن تقتلع الصمغ وتقتنص شعاب الفروع.

همس محب بصوت خافت:

— ما أسرع تبدل الأحوال، لم يبق شيء مما كان في الحارة أو الحقل على حاله. ها هو حطام عالم كان زاهياً في أمسه، فصار ركاماً.

وأحس محب برغبة في زيارة حارة رجاء، التي كانت مثار لهفته ذات يوم، ثم صارت مثار نقمته في يوم آخر، وهي تدعوه الآن، لأنه لم يعد يجد حقداً في قرارة نفسه، إزاء ركام أنقاضها.

وصل محب إلى الحارة، فلم يجد باباً واحداً موصداً يحفظ السر خلفه، فقد أزيلت الأبواب، ورفعت النوافذ التي كانت تمتلىء برؤوس جارات رجاء، وهدمت السقوف، وبقيت أطلال الجدران شاهدة على تلك المنازل.

اجتاز محب ماكان عتبة الدهليز في بيت رجاء، وتوسط ساحة الدار وامتدت عيناه داخل الغرف، ثم دخل الغرف واحدة واحدة، وكان يتخيل رجاء تجول معه في منزلها، حتى وصل المطبخ.

— أين رجاء الآن .. أين جاراتها، أين أمل السليطة ؟؟

لمع بريق بين النفايات المبعثرة على أرض المطبخ، فانحنى محب والتقط مشطاً مطعماً برسوم ذات ألوان ذهبية، ونظر إليه فعرف فيه مشط رجاء الذي كانت تشبكه في شعرها .. وكان عدد من أسنان المشط مكسورة، وقد أمسكت الأسنان السليمة شعرات قليلة.

أطبق محب راحته على المشط وخفق قلبه .. فخرج مسرعاً.

○

كانت نعيمة دائمة الشكوى والتذمر من المرض في أيام زوجها الراحل فلا تكاد تصاب بوعكة حتى تدعي قرب

أجلها، لتثير عطف زوجها عليها، وتتمتع بحنانه، وتستوثق من حبه، وتنعم بقبلاته على جبينها وفمها، ولكنها الآن إزاء ابنها أخفت صوتاً، وأندر شكوى، على الرغم من شعورها بالمرض الذي طال أمده، واتضحت شدته فكلمها محب قائلاً:

— أمي .. يجب أن تزوري طبيباً ماهراً في المدينة، ليفحص جسمك فحصاً دقيقاً، إنني لا أرى في هذه الأعشاب التي تتعاطينها فائدة، فلم تخفف من ألمك بل زادته حدة.

زارت نعيمة عيادات كثيرة في المدينة، برفقة محب، وجلب محب لأمه أطباء عديدين إلى المنزل، ولم تبرأ، وبقي الداء يفعل في جنبها ويورثها الألم والقلق. قالت نعيمة تخاطب ابنها:

— دخيلك يا محب .. إنني لا أشتكي ولا أصرخ، ولكني موجوعة من مرضي، ولم أعد قادرة على الحركة، أنقذني يا محب .. ساعدني يا ولدي.

غص محب بريقه، وأمسك يد أمه، وقال:

— تجرعي الدواء يا أمي .. ليس لدي سواه.

أطرق محب صامتاً ، وشعر بعجزه إزاء مرض أمه ، ثم رفع رأسه وقال متفائلاً :

ـــ سأنقلك إلى المستشفى ، المستشفى أفضل لراحتك من بقائك في المنزل .

ـــ سأبقى وحيدة في المستشفى ، أفضل أن أموت في منزلي على أن أشعر بالوحدة في سريري هناك .. لا أريد أن أبتعد عنك يا محب . إنني أراك طوال النهار وقسماً من الليل .

ـــ أمي .. سيشرف الأطباء على مرضك في المستشفى في كل ساعة .. وستكونين موضع اهتمامهم وعنايتهم .

كتمت نعيمة آهة ألم ، وهزت رأسها بالنفي . وبقيّت متشبثة برأيها حتى حل موعد إخلاء المنزل الذي كانت تقطنه ، فرضيت أن تنتقل إلى المستشفى ، واحتلت سريراً مريحاً فيه بالمجان ، لأن المختار ختم ورقة فقر حالها دونما اعتراض ، مقابل خمس ليرات ، ثم ناولها لمحب قائلاً له :

ـــ فيها العافية .

وكأنها وصفة طبية .

جلس محب إلى جانب سرير أمه ، في أول زيارة له ،

وراح يتطلع مستغرباً من نظافة المكان وأغطية السرير ، ثم نظر إلى ثيابه الوسخة وحذائه الملطخ ، فشعر بخجل وقال لأمه :

ـــ سأحرص على نظافة ثيابي ، عندما أزورك في المرة القادمة .. كيف حالك يا أمي ، هل أنت مستريحة هنا .

ـــ أنا مستريحة ، ولكني مشغولة البال عليك ماذا فعلت حتى الآن ؟

ـــ لم أفعل شيئاً مازلت أقيم في المنزل .

ـــ ماذا فعلت بالمال المخبأ في الخزانة ، ألم تنقله إلى البنك ؟

ـــ نعم نقلته كما أشرت علي ، ووضعته باسمي ، فأعطوني دفتراً يخولني سحبه متى شئت ، صرت من أصحاب دفاتر الشيكات .

ـــ إياك أن تقبض فائدة يا محب .

ـــ لا اطمئني أودعته المصرف ، أمانة لحين الحاجة دون فائدة .

ـــ انقل يا محب غداً كافة أغراض المنزل إلى سوق «الأروان» وبعها بالمزاد ، وضع ثمنها في البنك ، وسأشتري لك أثاثاً جميلاً يليق بمسكنك الجديد في المدينة .

دخلت ممرضة الغرفة ، واتجهت مبتسمة نحو نعيمة ، وانحنت على سريرها مستفسرة عن أحوالها ، فلاحظ محب أناقة ثوبها الأبيض ولاحظ أنها كانت ترتديه على بدنها مباشرة ، فقد شاهد فخذها عندما انحسر الثوب عن ركبتها ، وشاهد حمالة نهديها ، عندما انفرجت قبة الثوب .

أطرق محب خجلاً ثم راودته نفسه ، فاختلس نظرة ، ولذ المنظر في عينه فأعاد الكرة ، فآنس ميلاً لدى الممرضة إلى عرض مفاتن صدرها ، فوقف واقترب من السرير وحدق ملياً وقال لنفسه :

— عندما سأتزوج ، سأشتري لزوجتي حمالة بديعة التطريز كهذه الحمالة .

واظب محب على زيارة أمه في المستشفى ، ليطمئن على صحتها ، وكانت تؤنسه رؤية الممرضات خلال الزيارة ، وخاصة تلك الممرضة الأنيقة ، التي رآها في أول زيارة له ، وتعرف عليها فيما بعد وعرف اسمها ، وكانت تدعى جانيت نبو ، وقد اشتدت صلتها بأمه ، فحمل محب الهدايا لأمه ولجانيت ،

فزادت أواصر الصداقة بينهم ، فأثرت جانيت على مجرى حياة محب .

كان محب يخبر والدته قائلاً :

— زارتني خالتي يوم أمس ، ودعتني إلى الإقامة في منزلها ، لأن موعد إخلائه متأخر عن موعد إخلاء منزلنا .

ردت نعيمة بسرعة :

— إياك يا محب أن تذهب عند خالتك ، لأن زوجها زارني اليوم واتفقت معه على أن تبدأ في بناء العمارة الأولى على أرضنا .. صار عبد الصمد شريكك يا ولدي فاحذر من ابنته سميرة ، لقد شرحت لك الأمر سابقاً ، فاسمع نصيحتي واستأجر غرفة لإقامتك بمالك ولا تقرب منزل خالتك .

سمعت جانيت حديث نعيمة إلى ابنها محب ، فعرضت خدماتها قائلة :

— توجد غرفة للإيجار ، مريحة ونظيفة ومنفصلة عن بقية الدار ، عند جارتي في حي القصاع ، فإذا قبلت سعيت لك عندها لتؤجرك إياها .

رحبت نعيمة بالفكرة ورحب محب وتم الأمر بسرعة، فنقل محب ما بقي لديه من الأغراض إلى الغرفة وأقام فيها، وصارت جانيت جارته ومرسالـه حتى خرجت أمـه من المستشفى وأقامت معه في الغرفة .

○

بدأ العمل في البناء، وكانت لدى محب وعبد الصمد دوافع كثيرة تجبرهما على العجلة، فكان عبد الصمد يهرول منذ الصباح بين الأرض والسوق ليشتري اللوازم، ويعيد الفاسد ويخاصم البائعين، ويشتم غياب المهندس وكذب المتعهد . وكان على محب أن يراقب العمال، ويستلم المشتريات ويدفع قيمتها من دفتر الشيكات .

قالت خديجة لزوجها عبد الصمد :

ـــ انتبه .. لقد حل موعد إخلاء منزلنا، وصار عليك أن تجد مأوى لنا بأسرع ما يمكن، حتى لا نبيت في العراء .

لم يرغب عبد الصمد في استئجار منزل لأسرته،

فسيكون لديه العديد من شقق السكن في وقت قريب، فصرف جهده مع محب ليهيىء مأوى للأسرة في قبو العمارة، فأغلقا نوافذ القبو ومداخله بأخشاب الصناديق الفارغة، وانتقلت أسرة عبد الصمد، لتقطن في ذلك المكان الرطب القذر .

رفض محب أن ينتقل بدوره، أو أن ينقل أمه إلى العمارة، قبل أن تنتهي ويصلها الماء والكهرباء، وتصبح الإقامة مريحة فيها . وفضل البقاء في الغرفة التي استأجرها . وكان محب يجد في أجواء جانيت المنطلقة حياة تختلف كثيراً عن الحياة التي عاشها، وكانت جانيت تختار ثياب محب، وتنتقده بشدة على كل سلوك أرعن، وتقدمه إلى معارفها من الرجال والنساء .

انطلق محب مع جانيت رفيقاً مهذباً، ملزماً نفسه بسماع نصائحها، في سلوكه وملبسه وحديثه، فرافقها إلى المطاعم والأندية وساير حبها للسهر .

لاحظت نعيمة التبدل السريع الذي أصاب ابنها، ففرحت به ولم تمانعه في أمر، ولاحظت سميرة التبدل، وكانت ترى محباً كل يوم، بعدما سكنت أسرتها في قبو العمارة، فاشتد

إعجابها بابن خالتها، وصارت تلازمه أينما حل في غرف العمارة أو على سطحها، ناشدة أن يعلق قلبه بها. فكانت تمازحه وتغريه على ضمها وتقبيلها، فيبتعد محب متذكراً نصيحة أمه.

أشرفت العمارة على الإنتهاء، ولكن نعيمة لم تنتقل إليها، بل نقلت إلى المستشفى لتفاقم علتها، واحتياجها إلى عملية جراحية سريعة في خاصرتها اليمنى.

أجريت العملية لنعيمة، ولم يكتب لها الشفاء، فساءت أحوالها كثيراً وزارها محب وأخبرها بإنتهاء أول عمارة، ففرحت وتمنت له حياة رغيدة، ولكنها لم ترها.

فجع محب بفقد أمه، فبكاها بلوعة وأسى، واعتكف في منزله أياماً عديدة حتى اشتكى عبد الصمد من انطوائه وعزلته وإهماله، ولم يفلح أحد في إخراجه من عزلته، سوى جانيت التي كان يثق بها، فعاد محب إلى عمله ونشاطه، ثم لم يلبث أن عاد إلى مرافقتها إلى المرابع المخملية والحفلات.

بقي محب وجانيت صديقين، حتى تزوجت جانيت ورحلت عن دمشق إلى بيروت، ففافتقدها محب كثيراً، وصار

يسافر إلى بيروت لزيارتها، ثم انقطعت صلته بها، وحلت محلها سميرة التي قبلت صداقته، وصارت ترافقه أينما ذهب.

○

— ٨ —

الرجوع إلى الحاضر

نهضت رجاء من سريرها، عصر اليوم التالي، للحفلة الساهرة، منهكة القوى، شاحبة الوجه، ومازالت ليلة البارحة، تثير قلقها، ففشلت في إخفاء اضطرابها، عن عيني أمها، التي كررت السؤال عن أحوال ابنتها، ولم تحظ بجواب شاف.

كان الوقت عطلة سنوية بالنسبة لرجاء، وكان يوم الجمعة، فبقيت رجاء في المنزل، تنتظر قدوم خطيبها، حسب العادة في يوم العطلة، حيث يلتقيان ويتحدثان، أو يخرجان للنزهة في شوارع دمشق وحدائقها، وكان يروق لهما أن يتوجها إلى منتزه الربوة، وأن يجلسا ساعات طويلة على مقعد خشبي قرب النهر، يوطدان معرفتهما ببعضهما، ويزيدان في شدة

ارتباطهما وينميان عاطفتهما الوليدة ، في انتظار ليلة عرس حافلة بالرغبة والمسرة ، تجعل بينهما رحمة ومودة .

استمال سليم قلب رجاء خلال الشهرين اللذين انصرما على إعلان خطوبتهما فأحبته ، وراقت رجاء في عيني سليم فأحبها بدوره ، ولكن رجاء اليوم في وضع مغاير ، إنها لا تعرف مدى وقع الحادثة على سليم ، إنها تتمنى مجيء خطيبها على جري العادة ، ليتابعا تفتح أحلامهما السعيدة المشتركة ، ولكنها تتهيب من لقائه ومواجهة أسئلته ، تحن إلى قدومه ، وتخاف من أثر أجوبتها على شعوره .

تأخر سليم عن موعده ، ولم يتصل بها ، فصبت نفسها إلى الإتصال به ، فأمسكت سماعة الهاتف ، وعجزت عن تحريك أصابعها ، وتدوير القرص ، ورن جرس الباب ، فشهقت وجزعت ، ثم أسرعت واستقبلته وشعرت من سلامه الفاتر ، وهن الخيوط التي كانت تربطهما فحزمت أمرها على أن تغزل حبل ود جديد يمتن الصلة بينهما .

حملت له القهوة ، وجلسا يرشفانها ، وكان سليم

يستمتع برؤية صباغ القهوة الأسمر ، يندغم مع حمرة ثغر رجاء ، وكان يهمس في أذنها :

ــ متى أقطف هذا الجنى الشهي من ثغرك العذب .

نظرت رجاء في عيني سليم مولهة به ، ورأته يحاول الكلام ، وكانت تلوك رشفة القهوة بين شفتيها ، فحسبته سيسألها عن موعد جني القطاف ، ولكنه سألها بلهجة المحققين ، ودون تمهيد :

ــ متى عرفت محباً ؟؟

قنطت رجاء بعد سماعها السؤال ، وأحست سؤاله نصلاً بارداً يغوص في عمق قلبها ، ليقطع ما بقي من خيوط واهية تصلهما معاً . بلعت ريقها وأجابت بعصبية محاولة إنقاذ خطبتها :

ــ عرفت فلاحاً ساذجاً قبل تسع سنوات ، كان اسمه محباً ، ولا أدري هل هو نفسه محب الثري أم لا ؟.. أنا لم أتأكد من شخصيته حتى الآن ، فقد كان فتى مراهقا ، وكنت آنذاك طالبة في الإعدادي .

قاطعها سليم قائلاً :

— اسمه محب الراعي بن فهيم الراعي، فهل هو نفسه ؟

— لا أدري كان ذاك فتى غراً، توفي والده، وحاولت أمه أن تخطبني له فرفضت ورفضت أمي استقبال أمه، دون أن نعرف اسمه الكامل أو نعلم شيئاً عن أحواله.. كان ذلك الفتى يبيع الخضار على حماره، وكان يبدو فقيراً، ويدعو منظره إلى الرثاء، هذه هي القصة.

— لا تبرر قصتك فعلته النكراء ليلة أمس، أين كان يشاهدك، وكيف تعلق بك ؟..

— كانت الحقول متاخمة لبيتنا السابق، وكنا نتردد على تلك الحقول لنتنزه فيها، فشاهدني كثيراً في الحقل وتقدم إلى خطبتي.

لفظت رجاء الكلمات الأخيرة يائسة، وساد الصمت في الغرفة، كان المحامي سليم يحلل أقوالها في فكره، ويقيس مدى انطباقها على الواقع. ثم حدق إلى وجهها، كمحام يمتحن صدق موكله، وخمنت رجاء ما كان يدور في خلده، إنه يظن على أقل تقدير، بوجود حب ساذج، ربط بين مراهقين، في ربوع الحقول الندية، فتواعدا وتناجيا، وفشل حبهما المبكر

بسبب ظرفيهما الحرجين، صغر سنهما، ونشأة محب. وإلا لما أقدم محب على عتابها، ذلك العتاب القاسي بتحطيم نخب خطبتهما، بعدما أشاد بهذه المناسبة السعيدة.

كانت رجاء محتشمة في علاقتها مع سليم طوال شهري الخطبة فلم تسمح له أن يقبل أبعد من راحتها، ولم تسمح لأصابعه أن تلمس فوق ساعدها، وكانت تستمهل شوقه المجنون، وتمنيه بوعود سخية، ستنجزها فتكون بينهما مواسم عطاء خيرة.

نهض سليم واقفاً يريد الإنصراف، فسألته رجاء:

— ألا تنتظر قليلاً لأبدل ثيابي وأرافقك إلى النزهة كعادتنا في أيام العطل ؟

أجاب سليم باقتضاب، وقد بدت رجاء له أشد مكراً، وهو أكثر غفلة:

— أشعر بصداع شديد، سأتصل بك غداً.. إلى اللقاء.

سار نحو باب الدار ، وتبعته رجاء حتى الدهليز ، واستوقفته عند الباب لتقول قبل أن يخرج :

— مازلت أودك يا سليم ، ولكنني أخشى على مستقبل زواجنا من طيف محب ، أخاف أن يتعس طيفه وئامنا ، لا ترجع يا سليم إلا إذا كنت منشرح الصدر .

غادر سليم منزل رجاء ، فمشت رجاء إلى غرفتها ، متينة الأعصاب ، واثقة من نفسها ، ولكنها ما كادت تنفرد وحيدة ، حتى انهالت عبراتها سخية فوق خديها ، فغطت وجهها بكفيها ، وأجهشت بالبكاء .

○

وجم سليم بعد مغادرته منزل رجاء ، يخمن مدى العلاقة التي ربطت فتى مراهقاً ببنت مراهقة ، وجرب أن يقلل من أهمية الحادث ، ولكن الأسلوب العنيف الذي حطم فيه محب كأسه معبراً عن ارتباطه برجاء ، وكونه زير النساء ، جعلا سليماً يفقد حلمه ، ويغضب غضباً شديداً ، يدعوه إلى التحقيق السريع في قصة رجاء والتأكد من صحة ظنونه .

ذهب سليم فوراً إلى شقة أمل ، وطرق الباب دون موعد ، ففتحت موكلته السابقة الباب ، وظهرت أمامه على عادتها غير مهتمة بستر مفاتنها ، فكانت ترتدي ثوباً منزلياً هفهافاً ، ينسدل على وركيها ، ويشف عن بقية ملابسها ، قال سليم مرتبكاً :

— اتأذنين لي بمقابلتك في الحال ؟ أم تحرجك زيارتي في منزلك .

ابتسمت أمل ورحبت مبتعدة عن فرجة الباب :

— تفضل يا استاذ .

دخل سليم ، وجلس في الصالون ، وازداد ارتباكه ، عندما تناوب ظهور شابين كانا يقطنان غرفتين من غرف المنزل أمامه ، بينما طالت غيبة أمل .

عادت أمل وهي ترتدي ثوباً قصيراً ، بلون قرمزي ويكشف عن ركبتيها ، وجلست فانحسر الثوب القصير بخلاعة عن فخذيها ، وبدت رخيصة في عينيه ، فلم تقم بحركة واحدة لتصلح من وضعها ، وكأنها اعتادت على هذا التصرف بحضور الغرباء في بيتها .

قال سليم متلفتاً نحو الشابين اللذين ظهرا معاً .

ـــ جئت لأسألك عن موضوع يهمني كثيراً .

فهمت أمل أن سليماً متضايق من حركة الشابين في الصالون ، فنهضت وسألتهما الإنزواء ، وعادت لتستمع إليه فقال :

ـــ عندي دعوى جديدة مقامة على محب الراعي ، أرغب في كسبها ، وأريد منك معلومات وافية عنه ، وعن أصله .

ـــ محب الراعي .. فلاح ، كان يبيعنا الخضار ، فأصبح ثرياً يتحكم بزبائنه .

ـــ كيف أنهيت مشكلتك معه ؟

نظرت أمل إلى سليم حذرة من سؤاله ، وبدا لها خبث في السؤال لم تكشف أبعاده ، فضحكت ببلاهة ، وحاول سليم أن يطمئنها فاسترسل قائلاً :

ـــ إنني لا أسعى إلى الإضرار بك ، لقد تأكدت الآن من شخصية محب . إنه كان يملك حقلاً قريباً من منطقة المزرعة حيث يقع منزلك القديم ، وكان سكان الأحياء القريبة يرتادون حقله .

أليس هذا صحيحاً ؟

ـــ لم أفهم قصدك حتى الآن ؟؟

احتار سليم كيف يشرح لها أفكاره ، وتلعثم كثيراً ، ثم سألها سؤالاً مباشراً :

ـــ هل كانت لمحب ، علاقة بامرأة من اللواتي كن يذهبن إلى حقله ؟

ظنت أمل أنه يعنيها ثانية بكلامه ، فسخرت منه قائلة :

ـــ إذا كنت تقصدني بكلامك ، فأنا أكبر من محب بسنوات ، كنت مطلقة عندما كان محب شاباً يافعاً .

استمع سليم إلى أمل ، ونظر إليها دون أن يعلق بكلمة مصمماً أن يفسح لها مجال الثرثرة لعلها تخوض مصادفة في الموضوع الذي يهمه .

ولما لم تجد أمل ما تتحدث به إلى سليم ، اقترحت عليه مشروباً :

ـــ دعنا من محب لقد انقطعت عن زيارته بعد استلامي الشقة ، أنت أرفع منه مقاماً في نظري ، وأنا أحرص على زيادة معرفتي بك من حرصي على عشرة محب .

لم يرق كلام أمل لسليم فهتف محتداً :

— أرجوك أن تساعديني .

لوت أمل شفتها السفلى بدلع وتكلمت برطانة فيها دعوة حارة إلى لقاء مثير :

— هل أزورك غداً في مكتبك ، لنتحدث حديثاً مستفيضاً ؟

قالت عبارتها وأمالت عنقها وغمزت بعينها وسألته بصوت مبهم مستفسرة عن جوابه :

— آ .

فهم سليم قصدها فقال لها :

— اتصلي بي لنلتقي متى شئت ، ولكنني أريد أن أعرف منك الآن ، تفاصيل خطبة محب لفتاة كانت تقطن في جوار بيتك .

أدركت أمل بحدس الأنثى ، أن هذا هو بيت القصيد من مجيئه عندها ، وأدركت أن الأمر مهم جداً بالنسبة له ، فصمتت مبتسمة ، فاستحثها قائلاً :

— هل تذكرين الموضوع ، أم أنه تافه حتى نسيه كل من عاصره ؟

— لا لم أنسه ، وما تزال رجاء جرحاً نازفاً في قلب محب .

— كيف وثقت من قرارك ؟

— عندما رافقتني إلى مكتبه ، واستعصى حل قضيتي عليك قررت أن أبعدك ، واختلي به ، لاستحلفه بحبه لرجاء ، أو استعطفه من أجل أمي .

— بمَ أجابك ؟

— ما كدت ألفظ اسم رجاء ، حتى اضطرب كثيراً ، وشحب لونه ، وقال لي حدثيني عن أخبارها ، وجلس مصغياً فتابعت كلامي عن أسرتها الفقيرة ، التي انتقلت إلى منطقة المزة ، وعن رجاء التي أوشكت على التخرج من قسم اللغة العربية في الجامعة ، فوقف وقال : انتقي الشقة التي تعجبك ، وسأفر غ ملكيتها لك ، وعندما نهضت لأنصرف استوقفني وسألني : — أرجوك أن تجيبيني بصدق هل ذكرتني رجاء مرة أمامك بخير ؟ هل استنتجت مرة من حديثها أنها تميل إلي قليلاً ..؟ — رق قلبي له ، وخطر لي أن أكذب عليه ، ولكن

ملامحه الحزينة وكرمه في معاملتي أجبراني على الصمت ، فلم أخبره أنها كانت تسخر منه أمام الجيران كلهم .

خرج سليم من منزل أمل ، فرحاً ، مسروراً ، حتى كادت سترته أن تعلق بيد الباب وتتمزق ، ونزل الدرج مسرعاً ، فحبيبة قلبه نقية كالصبح ، صافية كماء النبع ، لم تنفرد مع محب في مخابئ الحقل ولم تستلق إلى جانبه فوق العشب الأخضر ، في لقاء ساخن ليتبادلا القبل السفيهة . وليست عفتها عفة مصطنعة اكتسبتها بعد تجربة حب فاشل ، بل هي عفة أصيلة في قلبها ، متينة في نفسها ، يدعمها ويعمقها إيمان شديد بالله وفضائل الأخلاق .

نظر سليم إلى ساعته ، كان الوقت مبكراً لا يمنع عودته إلى منزل رجاء فما يزال لديهما وقت كاف للإشتراك معاً في نزهة العطلة الأسبوعية . ركب سيارة ، وطلب من السائق أن يوصله إلى عنوان منزلها بسرعة .

بكت رجاء حتى احمرت عيناها ، وازرق لونها قليلاً ، فنهضت وغسلت وجهها بالماء البارد ، وتوضأت وصلّت ، ثم

جلست ساكنة تقلب وجوه الرأي في مستقبل علاقتها مع سليم .

كانت رجاء تقترب من نهاية العقد الثالث ، فهي تخشى أن تفقد خطيبها سليماً وتسوء سمعتها فيفوتها قطار الراغبين في الزواج . لقد بلغت عتبة حرجة في عمرها . رفعت رأسها تسأل الله أن يعينها وأن يشرح صدرها ، وأحست كأن تلك الشدة غير المتوقعة التي ظهرت في حياتها ما بين ليلة وأخرى عقاب أوقعه الله لسوء سلوكها مع محب ، الذي سخرت منه في صباها ، فرفعت رأسها إلى السماء تسأل الله أن يعفو عن هفوتها وأن يزيل عنها كربها .

قرع الجرس ، فبقيت جالسة في مقعدها ، وفتحت أمها الباب ، ونادت :

ــ رجاء رجع خطيبك .

هرعت رجاء إلى سليم فوجدته يضحك جزلاً ، وسحبها من يدها قائلاً :

ــ عجلي يا رجاء لقد عدت لاصطحبك معي إلى مجلسنا في الربوة .

جلس الحبيبان قرب نهر بردى يستمتعان برطوبة الوادي الأخضر في الربوة ويتابعان انسياب المياه وهي تتلألأ بأضواء السيارات وتصل حصاها .

قالت رجاء فرحة بعودة خطيبها :

— كيف انتصرت على هواجسك وعدت بسرعة ؟

كانت رجاء تتوقع أن يحدثها عن إعجابه بها ، وعاطفتهما المتبادلة لتكبر فيه رجاحة عقله ، فدهشت عندما أخبرها بزيارته المستعجلة إلى شقة أمل ، وأصغت إليه مستغربة إقدامه على التحقيق في قصتها ، وسمعته يقول :

— تأكدت أن محب الراعي هو نفسه محب الذي طلب يدك وشعرت بخيبة في بادىء الأمر ، لعلاقة تربطك بذلك الثري المنحط ، ولكن أملاً برأتك من أية علاقة به .

كانت رجاء تحتقر أملاً على سلوكها المستهتر مع الرجال ، وعز عليها أن يطلب خطيبها براءتها من فم امرأة مستهترة ، ولا يثق بأقوالها وهي التي أعدت نفسها لتقاسمه حياته في السراء والضراء ، وتنبأت أن خطيبها سيظل يمارس

مهنته في مكتبه وفي منزله ، فيحقق في أمور تخصهما ، بمنأى عن العاطفة التي تربطهما ، رافضاً الحس الانساني السليم .

أسفت لهذا المستقبل القاسي ، الذي ستجابهه في زواجها من سليم وسكنت ، تحاور نفسها ، عن مدى تحملها لإنسان قوي المناقشة ضعيف الإحساس ، وعن مدى نجاح زواجهما ، وخطر لها محب الفاسق ، فاشمأزت من الدنيا وأهلها وتكلمت فشابت سخرية لاذعة لهجتها :

— كيف استقبلتك أمل بمفردك في شقتها ؟

— لم تكن وحدها .. إنها تؤجر طالبين عندها .

— هل أرتك فخذيها ؟

أجاب سليم ضاحكاً :

— صار استهتارها عادة في سلوكها ، أظنها امرأة مريضة ، نعم ، أنا واثق أنها مريضة ، بحاجة إلى علاج نفسي ، تصوري أنها جربت أن تواعدني في مكتبي ، فرفضت طبعاً .

— سأقتني وساماً لك لتضعه على صدرك فخورة برفضك مواعدتها .

لم يعهد سليم هذا اللحن الساخر في صوت رجاء، خلال محاورتهما السابقة فخشي من هذا التبدل المفاجىء في صوتها فقال لها:

— ما الذي أثارك ضدي يا رجاء؟

— هل سألت أملاً كيف أقنعت محباً بالتنازل عن حقوقه في العقد؟

لم يرتح سليم إلى هذا السؤال، فحاول أن يبدل الموضوع فوراً:

— لم تعد تعجبني لهجتك، أرجوك.. دعينا من محب وأمل.

— أنا حزينة.. لأنك لم تثق بأقوالي يا سليم، بل وثقت بأقوال امرأة مستهترة لم تتورع عن الإستسلام إلى رجل من طينتها، من أجل خلاف على مبلغ حقير تافه.

اندفع سليم ليبرىء أمل، ولم يجد آنذاك بداً من أن يقول:

— كان اسمك يا رجاء، هو الطلسم السحري الذي

استخدمته أمل في استرداد حقها من محب. حدثته عنك، ورجته باسمك، فأعطاها أكثر مما تستحق.

عضت رجاء على شفتها من القهر، واضطرمت عواطفها، بعدما صدمها الواقع بأحاديث صارت كرياح عاصفة في فكرها وقلبها فوقفت وهي تقول:

— أرجوك أوصلني إلى المنزل، صرت محتاجة إلى الراحة، أنا تعبة من قدري بينكم، أنت وأمل ومحب.

○

اعتكف محب في غرفته في الفندق طوال النهار، ولم يغادرها حتى مضى هزيع كبير من الليل، وخفت حركة النزلاء والمصطافين، وسكنت ضجتهم، ولكنه لم يكد يجلس إلى طاولة منعزلة على الرصيف في الحديقة، حتى شاركته سميرة الجلوس إليها قائلة:

— شغلت بالنا باعتكافك، حتى جربنا الإتصال بك، ولم نطمئن إلا حين طلبت طعاماً إلى غرفتك.

— ضاق خلقي من سهرة **الأمس** ففضلت البقاء في غرفتي طوال اليوم .

— انتظرك والدي حتى يئس من خروجك فصعد إلى غرفته لينام . كان مصمماً على محادثتك .

— أيريد أبوك نصحي ؟

— أنت غالٍ علينا يامحب ، ونريد الخير لك .

ضحك محب وقال ساخراً :

— الخير لي أم لكم ؟

نظرت سميرة بمودة إلى ابن خالتها وقالت :

— أتشك في مودتي يامحب ؟؟

تأمل محب عيني سميرة الواسعتين اللتين صارت تتقن تجميلهما على أحدث طراز ، فصارتا سلاحاً ماضياً في يدها ، وتأمل فمها الواسع الذي قدرت على إخفاء طرفيه ، فصار ملموماً كفم البرعم ، له جاذبية ، وفيه إغراء ، لو لثمه خبير لثماً رفيقاً ، متتبعاً حلاوة ريقه ، لأنساها خفرها ، ولبدد تقبيل ثغرها رشد الخبير .

خمنت سميرة من نظـرات محب ، ما كان يدور في خلده ، فمدت يدها ووضعتها على يده وقالت :

— لم نستمتع البارحة بالرقص في صالة الفندق بسبب **الإزدحام ، بينما المكان هادىء الليلة ، تعال نرقص معاً .**

اتجها إلى صالة الفندق ، وكانت الفرقة تعزف لحناً هادئاً ، فأسندت سميرة رأسها إلى صدر محب ، فشعر بمودتها ، وكاد يحن عليها ، ويطوقها بذراعيه ، ويضغطها على صدره ، ويفاتحها برغبته في الزواج منها ، لولا أنه تذكر أباها ، الذي زجها طعماً بينهما ، ليهيمن على الشركة . فبقي صامتاً وتركها تستريح على صدره دون مبالاة .. فسألته :

— ألست أجمل من رجاء ؟

— لِمَ هذا السؤال .. ؟

— لأنك استدرجتها إلى طاولتك ، ولم تشرب نخب خطبتها ، هل كنت تعرفها من قبل ، ولم هذا الإستفزاز الوحشي أمام خطيبها ، حيرني سلوكك حتى أنني لم أفهم مرادك .

لم يجب محب ، ومرت فترة صمت بينهما ، فتابعا الرقص ، ثم استرسلت سميرة قائلة :

— هل هدفت إلى فسخ خطبة رجاء من سليم ؟؟ وهل أعجبتك حتى صممت على الزواج منها ؟؟

— لَمَ هذا الكلام ياسميرة ، وأنت أعرف الناس بطبعي ، وتصميمي على عدم الزواج من أحد .

— ماذا تفعل إذا فسخت رجاء خطبتها ، وسعت إليك وحملتك المسؤولية وطلبت منك أن تتزوجها ؟

— هذا وهم في ذهنك ، لن يحدث بتاتاً .

— فقدت لباقتك في تصرفك الجلف مع رجاء ، ففهمت أن رجاء أكثر من نزوة في خاطرك ، لقد تخليت عن دهائك وأسلوبك الناعم إزاءها ، وعدت إلى طبعك الخشن كفلاح . وهذا ما أدهشنا كلنا .

— اطمئني ، مازلت على وعدي الذي قطعته على نفسي أمامك ، لن أتزوج قبل أن اسألك رأيك .

ابتسمت سميرة وزادت التصاقاً بمحب ، فضمها محب برفق ، وأسند رأسها إلى ذقنه ، وواصلا الرقص منسجمين .

— ٩ —

المجابهات ..

انفردت رجاء بأبويها العجوزين في السنوات الأخيرة ، لأنها كانت أصغر البنين والبنات في أسرتها التي تقلصت تدريجياً بالزواج والإنتقال والسفر . فعاشت مع أبويها في قوقعة ضيقة ، ومضت حياتها رتيبة ، قبل وبعد تخرجها من الجامعة .

اقتصر اختلاط رجاء بالناس ، على عدد محدود من الزميلات والزملاء وكانت تجد بين زملائها ، أكثر من شاب ، أهلاً لتحقيق أمنيتها في الزواج ، ففرحت بإطراء بعضهم ، وسرت من غزل بعضهم الرقيق ، ولكنها أصغت إليهم كلهم بأذن واعية ، وعقل راجح ، منتظرة أن ينقلب الغزل إلى القول المعروف — أحبك وأتمنى أن تقبليني زوجاً لك — لتفتح قلبها

وتأنس إلى ذلك الغزل الواعد وإلا فهو غزل مريب .. سرعان ما كانت رجاء تصد أذنيها عن متابعته .

انصرمت سنوات الجامعة ، ودخلت رجاء معترك الحياة ، وصادفت معجبين ، في أيام الامتحانات العامة والاجتماعات ، ولكن المحامي سليماً الذي صادفها مراراً عند موقف الباص ، صار اجرأهم ، فتقدم دون تمهل إلى خطبتها ، فقبلت به وفاز بيدها .

نهضت رجاء صباح يوم السبت فاترة الحركة ، من التفكير الدائم في أمر خطيبها سليم ، الذي كشفت حوادث اليوم المنصرم ، عن وجود تباين واضح بين شخصيتـــه وشخصيتها .

كانت رجاء ذكية وحساسة ، ونمت أحاسيسها رقيقة ، بدراسة اللغة العربية ، وتعمقت بالتراث الضخم من الشعر العربي العاطفي ، الذي حفظته رجاء عن ظهر قلب ، كشعر جرير وجميل وقيس .. فزاد في رقتها ، فهي تريد محباً يحترم عاطفتها ، ويتأثر بشعورها ، بينما ظهر سليم لها ، شاباً طموحاً

...نيا ، وجافاً قاسياً ، لا تهزه النوازع ، ولا يأبه بالمشاعر ، بل ...ترشد عقله في محاكمات ذهنية صعبة ، ويختلف كل الإختلاف عن الصورة التي حلمت بها ، ويختلف عن محب الذي سارع إلى التنازل عن حقه في العقد ببساطة ، عندما د در اسمها على مسمعه .

ورنت عبارة خطيبها سليم في أعماقها :

— كان اسمك يا رجاء هو الطلسم السحري الذي استخدمته أمل في استرداد حقوقها ، حدثته عنك ، ورجته باسمك ، فأعطاها أكثر مما تستحق .

بدا محب لرجاء بعد علمها بما جرى بينه وبين أمل ، إنساناً عاطفياً يذوب رقة وحناناً ، ويشبه الشعراء في موقفه الثابت من غرامه بها ، فمازال يحترم ذكراها بعد مضي تسع سنوات ، ويتعذب لفقدها ، وما كاد يراها حتى انشطرت نفسه ، ونسي مكره المكتسب وخبرته في غواية النساء ، وشطارته في إدارة أموره المالية ، فارتبك وأكسب خطيبها الدعوى ، من أجلها ، ثم ارتكب حماقة العاشق في حضورها ،

فحطم نخب خطبتها دليلاً قاطعاً على صدق عاطفته نحوها ، وعلى اعتراضه على زواجها من غيره .

تذكرت رجاء كأس شراب التوت الشامي الذي تحطم ، ولطخ أرض الفندق باللون الأحمر القاني ، فخيل لها كأنها تطل على قلب محب الدامي الذي ما انفك ينبض بحبها . وما فتئت جراحه تنزف من قسوة المشهد الساخر الذي حصل في الحارة في يوم خطبة محب لها ، وتذكرت عتابه القاسي :

ــ هذه مناسبة سعيدة ، هذه أسعد مناسبة ، في حياة الإنسان تستحق أن يوليها الأصدقاء والمعارف أهمية بالغة .

راجعت أقوال خطيبها سليم في سلوك محب المشين ، ولكنها لم تشمئز من سمعته ، بل تبينت في مكره انتقاما مشروعاً ، إزاء سلوكها الطائش تجاه حبه العظيم ولم تعد ترى في حادث تحطيم الكأس إهانة لها ، بل تحمست لاستعادة الحادث كدليل على حب كبير ما برح حياً ، وصار في متناول يدها أن تفاخر النساء اللواتي عرفهن من قبل ، أو سيعرفهن في المستقبل ، بأنها هي وحدها الصورة الحية النابضة في قلبه الولهان .

قررت رجاء أن تجابه واقعها على ضوء تفكيرها الناضج ، وأن تتحدى الذين اشتركوا في هذا الواقع كلهم .

مشت رجاء بخفة إلى المرآة ، ونزعت ثوب النوم ، ولم تكن ترتدي غيره على بدنها ، فظهرت عارية إلا من مشد يمسك حوضها ، وتذكرت نفسها حين كانت في مقتبل العمر بضفائر سارحة على وجنتيها ، عندما كانت تثب في الحقل أمام عيني محب ، وكان محب يختبىء بدوره في حمى شجرة ، ويركز نظراته عليها وتذكرت أول لقاء به ، حين ساعدها على عبور الساقية ، واضطربا معاً بإحساس واحد مشترك .

ــ ترى ماذا يفعل محب لو رآها الآن ، وهي عارية أمام المرآة ، وفي مكامن جسمها أكثر من موطن يثير الرغبة إلى عناق طويل .

خيل لها ، أن محباً جدّ وجمعَ الثروة من أجلها ، وبسبب استعلائها عليه ، وأنه مستعد للتنازل عن ثروته كلها ، مقابل كلمة حلوة تخرج من بين شفتيها .

ارتدت ثوباً بسيطاً ، اتفقت الآراء على ملاءمته

لحسنها ، واختارت ألبسة وثياباً ، وضعتها في حقيبة السفر .
وضمت إليها لوازم تجميلها ، وحملت الحقيبة ، واتجهت إلى أمه
في صحن الدار ، قائلة :

— أمي لقد أعددت حقيبتي ، لأنني سأغيب بعض الوقت عن المنزل .

دهشت أم رجاء إزاء قرار ابنتها غير المتوقع ، فسألتها :

— إلى أين أنت ذاهبة ؟؟

— قررت أن أمضي بعض الوقت في مصيف بلودان . الذي أعجبني مناخه واستهوتني طبيعته .

قالت الأم فزعة :

— هل ستقيمين وحدك هناك ؟

— نعم ، سأنزل في فندق مثل بقية الناس .

— أخشى عليك من مضايقة السفهاء ، ف لا تصطحبين أحداً ؟؟

أجابت رجاء وعيناها تبرقان بفكرة جريئة :

— أفضل أن أكون وحدي ، لأنني سأنزل في فندق

بلودان الكبير ، ولا يوجد مبرر للخوف علي ، لأنني كبرت ، وازداد وعيي .

شعرت الأم بخطورة قرار ابنتها ، على فشل خطبتها إلى سليم ، ولم تجد فائدة من الإستعانة بزوجها الطاعن في السن ، فبادرت إلى تنبيه ابنتها :

— ماذا أقول لخطيبك إن سأل عنك ؟

— قولي له الصدق ياأمي ، ذهبت رجاء وحدها إلى المصيف .

○

خبطت رجاء باب الدار بشدة خلفها ، متنكرة لحياتها الماضية .. ترى ماسيكون موقف خطيبها سليم من خطوتها المباغتة .. ؟؟ أتراه سيسعى إلى أمل مرة ثانية ، لتشهد بحسن سلوكها وعفتها ، أم أنه سيسعى إليها ليحاكم تصرفها متهماً إياها بالعباطة وسوء التقدير ، أو بالمكر والخداع ؟

سحبت رجاء القسم الأكبر من حساب توفيرها في البنك ، واتجهت إلى مركز انطلاق السيارات الذاهبة إلى

بلودان ، ولم تنسَ أن تشتري في طريقها ثوب سهرة جميل ، وآنق من ثوب سميرة قريبة محب ، مصممة ألا تعود خاوية اليدين من إجازتها في الفندق ، ولاسيما بعدما أمضت تلك السهرة في ربوعه ولاحظت وجود أكثر من فرصة لاختيار عريس يليق بها .

وصلت رجاء إلى الفندق ، قرب العصر ، في الوقت الذي تبدو فيه المصايف مهجورة ، فلم تصادف أحداً عند دخولها إلى الفندق فحجزت غرفة ورافقها الخادم إليها .

تجولت في غرفتها ، مستمتعة بالنظر إلى كل ركن من أركانها ، ثم قصدت الحمام ، فراعها حسن منظره ، وعدد المناشف المخصصة على مشجبه . ومدت يدها لتجرب واحداً من صنابيره العديدة ، فاندفع الماء من الرشاش وتساقط على رأسها ، وبلل كتفي ثوبها ، فارتدت مبهوتة ، ثم ضحكت وقهقهت وخلعت ثوبها المبلل ، فتشجعت وتعرت ونزلت في مغطس الحمام .

لم تستحم رجاء من قبل في حمام يحوي مغطساً ، على الرغم من أنها ابنة مدينة ، لأن إيراد أبيها المحدود كموظف

بسيط في سلك التعليم يعجز عن استئجار شقة عصرية ، فكان أبوها يفتش عن دار رخيصة في أطراف المدينة ، تحوي حماماً تقليدياً ذا جرن حجري . فتمتعت لأول مرة بالاستحمام في مغطس ينهال الماء فوقه كشلال متدفق ، وحركت الماء بيديها ومدت ساقيها ، فسرها منظر الماء المتلألأ فوق بشرتها الناصعة فأعادت الكرة .

وتذكرت أنها لم توصد باب غرفتها بالمفتاح ، ففزعت من أن يعرف محب بوجودها في الفندق ، ويداهم غرفتها خلسة ويلقاها عارية في المغطس فشهقت ونهضت مسرعة ، ولفت وسطها بمنشفة ، وهرعت إلى باب الغرفة وأقفلته ووضعت المزلاج ، وعادت مطمئنة القلب إلى لهوها .

تساءلت وهي تنشف شعرها الرطب أمام المرآة ، لمَ فزعت من محب ، أن يداهم غرفتها ، ولم تفزع من مداهمة خطيبها ، أليس خطيبها أولى بأن يتبع خطواتها ، ويظهر فجأة في واقعها ؟

أبعدت السؤال عن خاطرها ، دون أن تقطع باقتناع ،

لأنها صارت تخشى من أن تضيع اتزانها، في غمرة حماستها المتزايدة لمحب، فتقع بين يديه بسهولة كما وقع غيرها، وتفشل في تبديل سلوكه.

مكثت أمام المرآة عدة ساعات، تصفف شعرها، وتوضح ملامح وجهها.. الشفتين الأرجوانيتين، والحاجبين الرقيقين المقوسين، والعينين المظللتين ولبست ثوب السهرة الجديد، ذا الأكمام الطويلة الشافة، وذا القبة المقطوعة وزررت زرين في أسفل الصدر، وأغفلت زراً في أعلاه، عند التقاء النهدين وشكلت وردة مصنوعة من التول الأسود عند الكتف، ثم انحدرت نازلة على درج الفندق بخطى متزنة.

رآها كثيرون من نزلاء الفندق، وهي تختال بين بهو الفندق وحديقته. وتبعها بعضهم محاولين التودد إليها، فتجاهلتهم وحافظت على اتزانها، وكانت تتأمل سلوكهم من طرف خفي، لتتقن التصرف بينهم، دون أن يلحقها نقد جارح أو تعليق ساخر، فهذه هي تجربتها الأولى للعيش وحيدة في فندق.

○

أمضى محب نهار يوم السبت في مكتبه في دمشق، ثم ركب سيارته منطلقاً إلى بلودان، وظل يفكر طوال الطريق، في وضعه العائلي، فهو يعيش وحيداً منذ وفاة والدته، في شقة فخمة، كانت تضجره أحياناً، فيهجرها ليمضي عدة ليال في الفنادق.

واستغرب محب كيف أمضى تسع سنوات بعد خطبته لرجاء دون أن يفكر في الزواج مرة ثانية، وشعر بثقل السنين التي مرت، دون أن تؤمن له استقراراً عاطفياً، كرب أسرة تشغله أسرته، وتملأ حياته، وتعيده إلى منزله، ليجد فيه الراحة ويستقبله حنان الزوجة، ولهفة الأطفال.

وصل إلى الفندق، واتجه ليركن سيارته في طرف الحديقة، فشاهد رجاء تختال على الرصيف، فاستغرب رجوعها إلى الفندق، وتذكر أقوال سميرة في ليلة الأمس، فأوقف سيارته بسرعة وترجل منها، وفكر في أن يتبع خطواتها ولكن سلوكه المشين عند لقائهما السابق، شل حركته، فبقي جامداً قرب سيارته.

لمحت رجاء محباً في سيارته، فتابعت جولتها حتى نهاية

الرصيف ، ثم رجعت بشكل طبيعي عائدة أدراجها ، مقتربة من مكانه ، خطوة إثر خطوة ، حتى واجهته ، فحدجته بنظر ثاقب ، وقالت دون أن تبتسم :

— مساء الخير

— مساء الخير .

— عدت إلى الفندق لأحدثك على انفراد .

— أنصعد الى سيارتي وننطلق حيثما تشائين ؟؟

— لا مانع عندي في أن أزورك في منزلك ، لأنني واثقة من نفسي ، ولكنني أفضل أن نجتمع في أقل الأمكنة إضراراً بسمعتي .. حسب معرفتك بنفسك .

— سنختار طاولة على الرصيف بين الناس .

جلسا إلى طاولة تحت الأضواء ، وطلب محب من الخادم فنجانين من القهوة ، وحاول أن يخمن مضمون حديثها ، ففشل ولم تقنعه توقعات ابنة خالته فمازالت رجاء تجلس أمامه بأنفة وكبرياء ، محاطة بهالة قدرها الرفيع ، كسيدة فاضلة مثقفة .

قطع محب الصمت قائلاً :

— مبروك ثوب السهرة الجديد .

أجابت رجاء دون خجل :

— كان ثمنه فوق قدرتي على الشراء ، ولكنني اشتريته مرغمة من توفيري لأني سأكون في حلبة سباق المظاهر .

— ثوب جميل يليق بك ، ويكاد بهاؤك يخطف الأبصار .

— شكراً للطفك ، وقد مللت من سماع الإطراء قبل قدومك ، دعنا نتحدث في الموضوع .

— نعم .. أنا تحت تصرفك ، ماذا تريدين ؟

— أريد منك أن تعتذر عن إهانتك ، وتشرب نخب خِطبتي بحضور كل الذين شهدوا اساءتك لي .

لم يتوقع محب هذا الطلب من رجاء ، ولم يخطر في باله ، أن تغامر بلقائه في غياب خطيبها لتسأله الاعتذار ، فازداد إعجاباً بشخصيتها ، وأسلوب حديثها وقال مازحاً :

— سأعتذر .. ولكن ألا تشكرينني لأنني اكسبت خطيبك قضية دون عناء ؟

ردت رجاء بقسوة :

ــ من تظن نفسك ؟ .. هل تحسب حملاً من المال ، يبيح لك الاساءة إلى الناس ..؟ هل تظن رضوخ عدد من النسوة الفاسقات لنزواتك طمعاً بمالك ، يتيح لك أن تتعرض لفتيات الأسر الكريمة دون وجدان .

نظر محب غاضباً وقال :

ــ اسمعي .. وانتبهي إلى حديثك ، أنا لم أعد ذلك الشاب الساذج الذي سخرت منه .

ــ هل تظن نفسك أرفع مقاماً منه ..؟ هيهات ، كان ذلك الفتى أفضل منك ، كان ذلك الفتى صادقاً طاهراً ، بينما أنت الآن ماكر خبيث ، كان ذلك الفتى يملك على الأقل حساً إنسانياً رائعاً ، ولكنه يفتقد الحس الحضاري ، بينما أكسبتك سنوات انتمائك إلى المدينة مالاً ، وأفقدتك حسك الانساني السليم ، ولم يرتق حسك الحضاري إلا بالمظاهر فقط .

لقد شوهك المال بدلاً من أن يزيد في بهائك ، جعلك كأي طاغية مستبد ، فخيل لك أنك تستطيع أن تحطم نخب خطبتي وتنتقم مني أمام خطيبي ، دون أن تخشى عقاباً ، لأنك

تنازلت له عن الدعوى مقدماً . إنني أرثي لحالك ، لأنك حملت رذائل حقد سنوات ضدي ، ولم تبقِ فضيلة واحدة من فضائل الحب في قلبك ، لترحم نفسك ، وتأمن إلى مستقبلك .

ــ اسمعي يا رجاء ، أنا الذي شقيت بحبك طويلاً .

ــ أرجوك لا تقاطعني ، انتميت إلى المدينة ، فزدت في مباذلها ولم تزد في فضائلها فضيلة واحدة ، زدت في منكرها ، ولم تزد في معروفها .

ــ هل نسيت ما فعلت بالفتى الصادق الطاهر الذي كان يملك حساً إنسانياً !

ــ لم أنسَ .. كنت صغيرة مراهقة طائشة ، ولم يكن تقرير مصيري بيدي كان أمري بيد أسرتي ، وكنت مقيدة بشروط بيئتي وظروف حياتي ، فلا عتب عليّ .

ــ لا تنفي المسؤولية عنك ، أنت تحملين وزر ماحدث ..

ــ أحمل وزر رفض خطبتك في المرة الأولى ، فلمَ لم تفكر في مواصلة العناء من أجل حبك ، حتى ترغمني بقوة عاطفتك ، فلا توجد امرأة في العالم لا ترضخ لعناد عاشقها ،

ألم يشدك الحنين إلى رؤيتي تسع سنوات ، ألم تؤرقك اللهفة إلى لقائي ، لمَ جبنت وابتعدت ، وكأنه لم يكن بيننا سلام ولا كلام ولا لقاء .

— يئست يا رجاء ، يئست في بادىء الأمر ، ثم فصل بيننا التنظيم بعد رحيلك عن المنزل الذي زرت أنقاضه ، ووجدت مشطك المكسور العتيق على أرضه ، فالتقطته وما يزال في حوزتي ، وما تزال بين أسنانه شعرات من رأسك .. حتى اليوم . ومازلت ألثم شعرك كلما خطرت في بالي . وأتمنى أن أضمك إلى صدري وأتحسس شعرك بأصابعي ، وأوسع وجهك لثماً وتقبيلاً .

بان الخفر على محياها ، فأطرقت حياء ، وازداد حسنها بالخجل ، فذابت نفس محب لوعة ، واسترسل قائلاً :

— أعتذر عن صفاقتي ، فقد غاب عن ذهني أنك امرأة مخطوبة .

أحرج كلام محب رجاء بعدما وصل الحوار بينهما إلى مصارحات صادقة وجادة ، فصمتت رجاء وصمت محب ،

وكان كل منهما يفكر في العبارات التي قالها أو سمعها ، ثم قطعت رجاء الصمت :

— ماحدود معرفتك بخطيبي سليم ؟؟

— تعرفت عليه عندما زارني في مكتبي مع جارتك السابقة أمل ، بصدد عقد كان بيني وبينها .

— علمت بتفاصيل القصة ، وتمنيت لو لم تكرمها بسببي .

— مهما بعد بنا المكان ، أو فرق بيننا الزمن ، ستظلين غالية علي يارجاء .

— أرجوك .. كنت تشرح لي صلتك بخطيبي سليم .

— سليم محام قدير ، وقد ازداد احترامي له اليوم ، لأنه لم يتصل بي لإنهاء القضية التي اكسبته إياها بسهولة ، وأتوقع منه إلغاء الإتفاق ، ومتابعة القضية في المحاكم ، أمام سليم مستقبل جيد ، وهو مثقف ، يليق بك ، أتمنى لكما التوفيق ، في زواجكما ، وأرجو أن ألقاكما معاً في القريب العاجل لأعتذر لكما عن سوء تصرفي السابق .

صمت محب ، وشعرت رجاء بأسف لأنها قست في

حديثها على محب كثيراً . فلدى محب طباع كثيرة حميدة ، فلم يشتم خطيبها ، ولم يقلل شعرة من مكانته في نفسها ، فنظرت معجبة به ، وأحسا معاً بضرورة الفراق ، فنهضت ونهض محب ومدت يدها مودعة فأمسك يدها برقة وابتسم وابتسمت ، وابتعدت عنه .

○

ــ لمَ لم تفكر في مواصلة العناء من أجل حبك ، حتى ترغمني بقوة عاطفتك فلا توجد امرأة في العالم لا ترضخ لعناد عاشقها .

بقي محب في مكانه خلف الطاولة ، يفكر في كلام رجاء العذب القاسي ، وفي صراحتها الحلوة الجارحة ، وفي موقفها المحير الذي لم يوضح مرادها ، وانضمت سميرة إليه ، وبدت متوترة الأعصاب ، شاحبة الوجه ، قد آلمها لقاء رجاء بابن خالتها ، فقالت بحدة :

ــ هل صدقت كلامي ؟ لقد سعت إليك كما

توقعت ، لتحملك مسؤولية فسخ خطبتها ، وتثير حميتك ، وتستدرجك .

ــ أنت مخطئة في ظنونك ، مازالت رجاء خطيبة سليم .
ــ كيف تجرؤ على الإتصال بك دون خطيبها ؟
ــ انسي الموضوع ، وهيا لنأكل فأنا جائع .

رافقت سميرة محباً إلى مطعم الفندق ، ودخلاه معاً ، وكانت سميرة تسير إلى جانب محب ، عندما شاهدت رجاء جالسة في المطعم تتناول عشاءها ، فأمسكت سميرة بزند محب والتصقت به ومالت إليه بغنج ، وقالت بصوت عالٍ لتسمع رجاء :

ــ تعال نجلس إلى طاولتنا المفضلة .

جلسا ، وضحكت سميرة ، وافتعلت المرح الشديد ، لتكشف عن عمق الصداقة التي كانت تربط بينها وبين محب ، وكانت ترتدي ثوباً أرجواني اللون ، طفا ألقه على وجهها ، وبان في ألق حدقتيها الواسعتين ، ورنت ضحكتها ، فبدت أنثى مثيرة ولفتت إليها الأنظار .

لم يخفَ سبب سلوكها عن ذهن محب ، فسايرها خوفاً من أن تقدم على تصرف أرعن ، يغضب رجاء ، ويوقعه في الحيرة ، فهو بين اثنتين يحفظ ودهما في قلبه ، وستكون إحداهما زوجته .

نهضت رجاء ومشت بخطى ثابتة ، تريد الخروج من المطعم ، بعدما وقعت على كشف الحساب ، والتفتت حين اقتربت من طاولة محب ، وابتسمت محيية من بعيد ، فرد محب وسميرة التحية ، وتابعت سيرها ، فقال محب معلقاً :

— لقد تصرفت كمقيمة في الفندق ، ولكن أين خطيبها ، لمَ لم ينضم إليها حتى الآن ؟

غاض قلب سميرة بين جنبيها ، وقد أحست بخطر منافسة رجاء ، بعدما صارت من نزلاء الفندق ، فأمسكت سميرة يد محب وهزتها بشدة قائلة :

— أرجوك يامحب ، احذر خبث هذه المرأة .. وابتعد عنها .

— اطمئني ياسميرة ، أنا لم أعد صغيراً ، سأعالج خبثها ، وأرد كيدها إلى نحرها .

— أرجوك يامحب ، أن تتركها وشأنها ، إنني لم أتدخل مرة في شؤونك ولكني خائفة الآن ، عدني ألا تتزوجها .

ترقرق الدمع في عيني سميرة ، وشعر محب بعطف عليها ، فكرر وعد الأمس قائلاً :

— لن أتزوج قبل أن اسألك رأيك .

○

فضل محب البقاء في الحديقة وحده ، فانزوى في ركن منها ، منفرداً على مقعد خشبي عريض ، وانتابه السخط على وضعه القلق ، فهو عاجز عن اتخاذ قرار ، يبدل أحواله ، ويجلب له السعادة وراحة البال ، ولا سيما إثر ظهور رجاء ، وملاحقة سميرة .

صعدت سميرة إلى غرفتها وبكت في حضور أمها وأبيها ، فنزل عبد الصمد إلى الحديقة باحثاً عن محب ، حتى وجده في عزلته فشاركه مقعده وقال :

ـــ سميرة ابنتي ، متألمة وقلقة ، تركتها تبكي على صدر أمها .

هز محب كتفيه دون اكتراث وقال لأبي سميرة :

ـــ هل تشتري حصتي في المكتب يا أبا سميرة ؟

ـــ أريد أن أبحث معك حال ابنتي ، لقد تفتحت سميرة على يديك ، وسلكت مسلكك ، تعلمت الرقص والسهر ، وارتياد الحفلات ، ولم يكن لي خاطر بتاتاً في هذا المسلك ، فصمت على مضض ، متوكلاً على تطمين زوجتي ، ومعتمداً على ثقتي فيك كقريب غيور ورجل شهم ، سميرة تودك يامحب ، وحان وقت زواجكما .

ـــ هل تشتري حصتي في المكتب يا أبا سميرة .

ـــ ستقول لي أن سميرة رفيقة عمرك ، وأنك لم تفكر فيها كحبيبة وزوجة ، ولكنني أنصحك باختيارها ، لأن مزاجكما واحد ، وذوقيكما متفق في معظم الأمور ولاسيما أن ابنتي مسايرة ، وغير حقود ، بقيت على وفائها لك ، دون أن تغضب من هفواتك الكبرى ، ونزواتك العديدة التي جرت على مرأى ومسمع منها .

ـــ هل تشتري حصتي في المكتب يا أبا سميرة ؟

ـــ أحدثك في أمر هام ، يتعلق بمستقبلك ومستقبل ابنتي ، فتسألني عن حصتك في المكتب ، أتريد أن تمكر بي ؟

رد محب بجواب قاطع :

ـــ سأرجىء بحث زواجي من ابنتك ، حتى أبيع حصتي في المكتب ، وأقبض المبلغ كاملاً .

صعق أبو سميرة من قرار محب وظنه خدعة منه ، وابتعد محب تاركاً عبد الصمد ، فقد استقر رأيه على أمر واحد .

سيبيع حصته في المكتب إلى أبي سميرة ، ويشتري حقلاً في الريف القصي ، حقلاً بعيداً ، لا تمتد إليه الحارات ولا يقع ضمن التنظيم .

— ١٠ —

الخلاف ..

استيقظ محب نشيطاً صباح اليوم التالي ، وأجرى عدة مكالمات هاتفية محاولاً الإتصال ببقية المحافظات ، وجلست سميرة تنتظره على مقعد وثير في بهو الفندق غير واثقة من مراده ، ثم رافقته إلى غرفة الهاتف ، وسمعته يبلغ مكاتب عقارية عديدة عن رغبته في شراء مزرعة على نهر العاصي ، أو في المنطقة الممتدة بين بانياس واللاذقية .

أسرعت سميرة وأعلمت أباها بالخبر ، فجاء أبوها مسرعاً ، وسحب محباً من يده ، وصعدا معاً إلى غرفة أبيها ، ورافقتهما سميرة .. قال عبد الصمد :

— لمَ ترغب في شراء مزرعة ؟؟

ــ قررت البارحة أن أبيعك حصتي في الشركة ، وأن انتقل إلى مزرعة بعيدة عن المدن .

بلع أبو سميرة ريقه بصوت مسموع ، وقال متشائماً :
ــ ظننت كلامك البارحة مكراً منك ، لتتخلص من شراكتي ، ولكني أراك جاداً في رأيك ، هل تريد الفرار مني ، أو من الزواج من ابنتي ؟؟

نظر محب إلى سميرة بمودة وابتسم قائلاً :
ــ قررت الفرار منك ، سأتزوج من سميرة ، ونرحل معاً إلى المزرعة . لقد أتعبتني شريكاً ، ولن أرتاح إليك شريكاً وأباً لزوجتي .

ضحك عبد الصمد من صراحة محب وخوفه ، وقال :
ــ لا حاجة لفرارك مني ، سنبقى شريكين وأدع لك الخيار في بقائك عازباً أو الزواج من ابنة خالتك .. ما رأيك ؟؟

قطبت سميرة جبينها وقالت بحدة مخاطبة أباها :

ــ لمَ لا نتزوج ، وتبيع حصتك في المكتب إلى محب !!

رد محب بصوت هادىء :
ــ سأبيع حصتي ونتزوج ونرحل معاً إلى مزرعتي الجديدة .

حيثما وجد اتفاق بين طرفين على أمر ، ينشب خلاف بينهما على أمر آخر . فهم مختلفون على كل الأمور ، وتبادل الأطراف الثلاثة النظرات برهة ، ثم قطع عبد الصمد الصمت مستحثاً محباً أن يعدل عن شراء المزرعة فقال :

ــ هل أنت مجنون لتترك أرباحنا المضمونة من أعمالنا في المدينة وترجع إلى الريف لتكد وتتعب في حراثة الأرض وزراعتها .. انظر إلى أحوالنا الحسنة التي لم نكن نحلم بالوصول إلى قسط منها ، سنبقى في أعمالنا معاً نجني الأرباح بسهولة ويسر ، ونحن جلوس على مقاعد وثيرة ، نتحكم بالعباد .

لم يجب محب فانتهره عبد الصمد :

ــ لمَ لا ترد ، قل .. تكلم ..
ــ اسمع ياعبد الصمد ، صرنا من أهل المدن فجأة بسبب تنظيم حقولنا وآلمتنا ألاعيب السيئين من أهل المدن في

مطلع انتسابنا إليهم ، حين مكروا بنا فمكرنا بهم ، وصار مكرنا أشد من مكرهم .

ــ حلال على الشاطر .

ــ أي حلال .. ؟؟ الحلال بيّن والحرام بيّن يا عبد الصمد .. ونحن غدرنا بالناس ، إذ أقمنا مكتبنا على دعاية ظاهرها الحق وباطنها الباطل ، فاستكتبنا الطيبين والبسطاء عقوداً مبهمة ، فأثرينا من التلاعب بالحديد والأسمنت والخشب ولوازم البناء .. نعم ياعبد الصمد .. لم تبقَ رذيلة من رذائل الفاسقين إلا واتقناها في تسع سنوات .

ــ كلامك قاس ، وكله افتراء ، نحن لم نفعل شيئاً لم يفعله غيرنا من تجار البناء .

ــ ألم ندفع الرشاوي ونقبضها من أجل مصلحتنا ؟؟ ووعدنا وأخلفنا وخاتلنا من أجل الكسب وحده ؟

ــ ماذا جرى لك يا محب ، من سحرك فقلبك ضدي وضد مصلحتك ؟؟

ــ نحن الفلاحين نخلف براءتنا في الريف ، ويضعف إيماننا بالله والقيم ، عندما نستوطن المدن ، لأننا نتطلع إلى تقليد المترفين في بذخهم وإلى مجاراتهم في مظاهرهم الكاذبة البراقة ..

خشية من أن يقال عنا أننا مازلنا فلاحين .. لقد أتعبتنا هذه العقدة تسع سنوات ، ولكنني تحررت منها ، أنا فلاح يا عبد الصمد ، وأفخر بأصلي كفلاح ابن فلاح ، وأريد أن أعود فلاحاً في الريف ، لأعود إلى حسي الانساني السليم ، أفضل أن أكون فلاحاً حراً في أرضي على أن أكون عبداً للمظاهر في المدينة .

قال عبد الصمد مقاطعاً محباً :

ــ أنت تشعر بتأنيب الضمير لأنك انغمست في ملذاتك ، ولكنك غبي يا محب ، تب إلى الله وتزوج وعش في المدينة في أمان واطمئنان .

ــ هل تنتظر مني ، بعدما صرنا على ما نحن عليه ، أن أنجب أطفالاً يقلدون سيرتنا في جو المدن المحموم ، أو هل تظن نفسك طاهراً بريئاً لأنك لم تنغمس في الملذات ؟؟ إنني لم أسمعك مرة واحدة تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، ولولا وقوفي في وجهك مراراً ، لألقيت بأيتام وأرامل إلى الطريق .. لا يا عبد الصمد لا .. لست أفضل مني ، وأنا سأترك المدينة وأرجع إلى الريف وأنجب هناك أولاداً يتطلعون إلى الكسب

الحلال ، ويعرفون فضيلة الزهد بالدنيا ، ويقصرون حبهم على زوجاتهم .

نهض عبد الصمد غاضباً ومازال يردد عبارته :

ــ أنت غبي يامحب .. أنت غبي وثرثار وأحمق ..

خرج الأب من الغرفة ، واقتربت سميرة من محب ، وقد فهمت مراده ، وخافت من أن ينقطع مستقبلها في ريف بعيد ، خال من الرفاه ، فتخسر حياتها الناعمة اللاهية التي استمرأت العيش في رغدها ، وطوقت رقبة محب بساعديها كما كانت تفعل حين مراقصته وقالت بدلع :

ــ سنتزوج يامحب ، ونبقى في المدينة ، نرتاد المطاعم الفخمة ، ونسهر في المرابع المخملية ، نرقص ونلهو ونسمر مع الأصدقاء ، ابق في المدينة يا محب ، أسايرك وأتساهل إزاء نزواتك ، وأهبك حياة لاهية ، ابق مقاولاً وسأقنع أبي بالتخلي عن المكتب .

أبعد محب ساعدي سميرة عن رقبته ، وقال لها بحزم :

ــ سأتزوجك ياسميرة ، وأنعزل معك ومع أطفالنا في

مزرعة بعيدة ، وأعدك أن أقصر حبي وحناني واهتمامي عليك وحدك .

ــ هل تنتظر مني أن أقول لك نعم ، وأن أخلع هذه الثياب ، وأرتدي تلك الثياب الجلفة ، وأعود معك ، لأعمل في الحقل وأحلب البقرة وأطعم الدجاج ..

ــ اقبلي ياسميرة ، وسأجلب لك أجمل الفساتين لترتديها مساء وأعدك أن أعمل وحدي في الحقل .. وأسعدك .

هزت سميرة رأسها نفياً ، مرعوبة من التفكير في العودة إلى الحقل ، وكررت عبارة أبيها :

ــ أنت غبي يا محب ، أنت غبي ..

قال محب بحزم :

ــ قرري الآن لأنني اخترت سبيلي ، وبدأت السير فيه .

ــ لا لن أرجع لن أرجع إلى الريف .. ولست بحاجة إليك ، صار والدي أغنى منك ، ابتعد عني لا أريد أن أراك .

ترك محب الغرفة ، وجلست سميرة على طرف السرير

واجمة، ثم انخرطت في البكاء، فقد صعب عليها الخيار، إنها تريد محباً في المدينة، ولن ترحل عنها إلى الريف.

○

أمضى المحامي سليم يومه الأول قلقاً، بعدما لمس لوناً من السخرية في ردود رجاء على اسئلته، فلم يجرؤ على الاتصال بها طوال يوم السبت وفضل الابتعاد عنها، لتنسى عتبها عليه، وليسبر مدى شوقها إلى رؤيته.

نظر إلى الهاتف صباح يوم الأحد، وهو يشرب فنجان القهوة في مكتبه، وكان يتوقع أن يرن الجرس فتتلقف يده سماعة الهاتف، فيلقى خطيبته عبر الأسلاك، ورن الجرس مراراً لأسباب تتعلق بأعمال المكتب لكن صوت رجاء لم يطرق سمعه، فقرر أن يتصل بمنزلها قبل انغماسه في العمل وما كاد صوت أمها يرد على الهاتف، وتعلمه بسفر ابنتها رجاء إلى فندق بلودان، حتى أصابه الذهول، فكيف تجرؤ خطيبته على الذهاب وحدها إلى فندق بلودان، حيث يقيم الرجل الغني السافل محب.

امتدت يده بالقلم إلى ورقة أمامه، وكتبت وشطبت، وتساءلت وأجابت، ودققت ورسمت رجلاً وامرأة في غرفة واحدة، وظهرت النتيجة:

— كنت أظنها عاقلة ومتزنة، ما الذي دفعها إلى هذا التحدي المؤلم لي، إنها لم تعد صغيرة ولا مراهقة، أتريد أن تختبر مدى تعلقي بها، وغفراني لحماقتها، أتسعى إلى ترويضي زوجاً مطيعاً لتلهو في المستقبل على مزاجها.. ؟ أم أنها عادت تسعى إلى الزواج من خطيبها السابق بسبب ثرائه.. ؟؟ سأكون قاسياً في معاملتها، وسأصفعها في أول لقاء منفرد.. لا لن أصفعها.. يحتاج ظني إلى دليل قاطع حتى ينقلب من شبهة إلى اتهام.. سأحقق في أقوالها، وأجمع القرائن، وأقارن بين أقوالها وبين الوقائع الثابتة. وأدينها وأفسخ الخطبة، أو أبرىء ساحتها، وأنصحها بالتروي.

مزق سليم الورقة منفعلاً، ونهض من وراء الطاولة، وقد استقر رأيه على الإنصراف إلى العمل، حتى الظهر ثم اللحاق خطيبته إلى فندق بلودان الكبير.

○

استيقظت رجاء صباح يوم الأحد في الفندق ، وتناولت افطارها بشهية ثم اتصلت بأمها في المنزل ، لتطمئن على أحوال خطيبها ، فعرفت بإتصاله ، وصارت تتوقع مجيئه إلى الفندق ، فجلست في الحديقة عند المدخل لتراه حال وصوله ، وكانت راضية كل الرضاء عن خطتها الجريئة ، وعن حديثها البارحة مع محب ، وخمنت أن يغضب سليم ويفسخ الخطبة وينصرف ، أو يفيق إلى أسلوبه الجاف في معاملتها ، ويشعر بإحساسها المرهف ، ويعجب بإرغامها محباً على الإعتذار لكليهما .

لمحت رجاء عبد الصمد ، ينتقل مضطرباً ، ورأت ابنته تلحقه قلقة وشاهدتهما يتحادثان ، وغابا عن بصرها ، ثم شاهدت محباً يدنو بسيارته من مدخل الفندق ، فتجاهلته حتى لا تضطر إلى محادثته ثانية ، ولا يوجد سبب يدعو إلى ذلك .

نزل محب من السيارة ، وفتح صندوقها الخلفي ، وانتظر وصول الخادم الذي اتجه نحوه حاملاً حقائب محب .

أصيبت رجاء بدهشة ، وهي ترى صندوق السيارة يغلق على الحقائب وترى محباً مزمعاً على مغادرة الفندق ، فنهضت مشتتة النفس ، وأقبلت على السيارة قبل أن تبتعد بمحب ، وشاهدها محب مقبلة فحياها بلطف فردت رجاء التحية وقالت :

— هل تركت الفندق ؟

— نعم .

— لا أدري لَم توقعت البارحة بقاءك مدة أطول ، ريثما يصل خطيبي سليم .

قال محب ساخراً :

— أتريدين أن اؤنسك في غيابه ؟

أحرجت رجاء ، وشعرت أنها غير قادرة على شرح وضعها أمام محب كيف تقول له ، إنني أتحدى خطيبي بك ، وأمتحن سلوكه من أجل مستقبل زواجي به .. لذا أرجوك أن تبقى في الفندق ، حتى أصل إلى حل يرضيني فأتزوجه أو يغضبني فأفسخ خطبتي وأتزوجك .

بقيت رجاء صامتة ، وكادت الدموع تطفر من عينيها ، ثم تمالكت نفسها قليلاً وقالت :

ــ ألم تعدني بالاعتذار في حضور خطيبي .. ؟

سأل محب :

ــ نعم وعدتك .. أين خطيبك لاعتذر له ؟

ــ خطيبي .. سيصل .. قد يصل مساء اليوم .

ــ أنا آسف .. صار علي أن أغادر الفندق حالاً .. لدي عمل هام لا يقبل التأجيل ، هاك بطاقتي .. اتصلي بمكتبي في دمشق بعد يومين لنحدد موعداً .

نظرت رجاء إلى البطاقة ، وظهر الإحباط على وجهها ، وقدرت فشل خطتها وارتبط لسانها ، ولم تجد ماتقوله ، فتناولت البطاقة بسكينة وهزت رأسها مستسلمة ونفرت مبتعدة .

أحس محب بخبرته ، أن رجاء فقدت لأول مرة قوة شخصيتها ، وراودته نفسه أن يرجع عن قراره ، ويبقى في الفندق ، ليتابع غوايتها في غياب خطيبها وكان واثقاً من النجاح ، فلم يعد منالها يحتاج إلى أكثر من مؤانسة ، حتى يصل خطيبها ، وينتهي الأمر بينهما بالفراق . ولكنه تذكر قراره ، فودعها بنظرة أخيرة وصعد إلى السيارة وانطلق مبتعداً .

○

وصل سليم إلى الفندق بعد الظهر ، ووجد رجاء في انتظاره ، فحياها ببشاشة زائدة ، ليخفي العصاب الشديد الذي كان يعاني منه ، واستقبلته رجاء ببشاشة تخفي بروداً حاذرا .. ودعته إلى تناول الطعام .

جلسا معاً فقال سليم :

ــ لمَ لم تخبريني عن رغبتك في الإقامة في بلودان ، إذن لرتبنا الأمر معاً ؟

ــ ضاقت نفسي بعد لقائنا الأخير ، فقررت الأمر فجأة .

ــ كنت أفضل أن أعلم الخبر منك ، لا أن تفاجئني أمك به ، ألست خطيبك ؟

ــ نعم أنت خطيبي ، ولهذا السبب جئت وحدي ، ولم أطلب رفقتك ، فلن نقيم في غرفة واحدة ، وسيبدو الأمر مضحكاً ومحرجاً لكلينا ، أن نتقابل نهاراً وننفصل ليلاً .

صمت سليم وكان يبحث عن سؤال غير مباشر ، وخمنت رجاء أنه سيسألها عن محب عاجلاً أو آجلاً ، فبقيت تنتظر سؤاله ، حين قال :

ـــ كيـف قضيت وقـتك ، ألم تشعـري بالملـل من الوحدة ؟؟

فهمت رجاء مغزى سؤاله ، فردت عليه ببساطة :

ـــ أنا هدفت منذ البدء إلى الإنفراد مع نفسي .

ـــ هل تتضايقين من وجودي ؟

ـــ زال الضيق ، وارتدت نفسي إلي ، ولم يعد يزعجني لقاء أي شخص .

ـــ هذا من حسن حظي يا رجاء .

تناولا طعامهما ، وخرجا إلى البهو فقالت رجاء :

ـــ هل تأذن لي بالاستراحة بعد الطعام في غرفتي لمدة ساعة ؟

ـــ لِمَ لا .. افعلي مايحلو لك .

ـــ ماذا ستفعل في غيابي ؟

ـــ هل يهمك أمري ؟

كانت هذه أول ملاحظة قاسية يتفوه بها ، وتقبلتها رجاء على مضض وقالت :

ـــ يهمنـي أمـرك فوقمـا تتصور ، ليتنـي استطيـع اصطحابك الآن إلى غرفتي إذن لصعدنا معاً .

أجاب سليم مازحاً :

ـــ سأغازل أول واحدة أصادفها في الفندق .

ضحكت رجاء وودعته بنظرة حالمة وقالت :

ـــ سأتركك لأني واثقة بك ، سألقاك بعد ساعة أو ساعتين ولن اسأل أحداً عما فعلته في غيابي .

صعدت رجاء إلى غرفتها ، وبقي سليم جالساً في البهو ، بعض الوقت ، ثم انتقل إلى الحديقة ، ومايزال قلقاً ، ومازال عصابه شديداً ، فحار في سلوكـه فعـاد إلى البهو ، وسأل موظف الاستعلامات عن محب ، فأجابه الموظف :

ـــ ترك محب الفندق صباح اليوم .

لم يجد سليم تفسيراً لرحيل محب المفاجىء ، يسكن عصابه ، بعدما قضى ليلته الأخيرة في الفندق بوجود رجاء ، فازدادت شكوكه ، وتوترت نفسه وكاد يصعد إلى غرفة رجاء ليطلبها إلى التحقيق فوراً ، لولا أنه شاهد سميرة قادمة فانتظر في

مقعده، ليكشف من تصرفها بعض المعلومات التي تفيده في التحقيق.

•

ابتسمت سميرة لما رأته يحدق نحوها، فابتسم، فاقتربت نحوه، فوقف ومد يده مصافحاً ومرحباً، فمدت سميرة يدها بهدوء وأسلمته إياها، وتعمدت أن تطيل الحديث تاركة يدها في كفه.

ـــ كيف حالك ؟

ـــ بخير والحمد لله، كيف حالك وحال الخطيبة ؟

ـــ بخير، وقد تناولنا الطعام معاً.

ـــ هل ستبقى الليلة معنا في الفندق ؟

ـــ لم أحجز غرفة بعد، إنني لم أفكر في الموضوع.

ـــ وهل يحتاج الموضوع إلى تفكير، أتترك خطيبتك ليلة ثانية وحدها في فندق مزدحم كهذا الفندق ؟

سحبته ومازال ممسكاً يدها، ووقفا عند طاولة الاستعلامات وحجزت له غرفة، وقالت:

ـــ أين خطيبتك الآن ؟

ـــ صعدت لتنام قليلاً في غرفتها.

ـــ أتفضل أن تستريح بدورك، أم تفضل البقاء معي في ندوة المسبح ؟

ـــ أفضل أن نبقى معاً.

ـــ سنشرب في الندوة نخب الخطبة دون إزعاج.

لاحظت سميرة لهفته، فشجعته، وسارا إلى ندوة المسبح، وجلسا إلى طاولة تشرف على المسبح، وطلبت سميرة من الخادم كأسين من شراب الأناناس وقالت:

ـــ طلبت لك الأناناس دون أن اسألك رأيك.

ـــ أنا أفضل شراب الأناناس.

ـــ أنا متعودة عليه من صغري.

نظرت إليه بفرح طفولي، وقالت:

ـــ نخب خطبتك لرجاء.

كانت تكلمه بسرعة، وتضحك وتجيب أحياناً عنه، وتسند خدها إلى كفها، وتنظر إلى عينيه، وتغمزه بعينها ملفتة نظره، كلما مرت سباحة فاتنة وكان سليم متلهفاً إلى سؤالها، عما خفي عنه، فترك نفسه على سجيتها وضحك مسروراً، وغمزها بدوره، سألته:

ـــ هل ستطول إقامتك في الفندق .. ؟

ـــ لا طبعاً .. جئت دون أمتعة .

ـــ ليس سبباً كافياً لعدم بقائك مع خطيبتك ، أنا أسافر غالباً دون أمتعة وأشتري لوازمي حيثما كنت ، وقد لاحظ «بابي» مصروفي الكبير ، فنبهني بقوله «تصرفين ياسميرة وحدك في شهر مايفوق راتب الوزير» .

سكتت ونظرت إليه نظرة خاصة واسترسلت :

ـــ إذن أنت لم تأت لتقيم مع خطيبتك ، لأنك دون أمتعة ، ولولاي لما حجزت غرفة في الفندق ، يبدو أنكما على غير وفاق .

ـــ وقع بيننا خلاف ، ففضلت رجاء أن تبتعد بعض الوقت .

ـــ تحيرني خطيبتك ، ألم تجد مكاناً غير فندق بلودان ، لتعتكف فيه ؟

ـــ ما الخطأ في فندق بلودان ؟ أليس فندقاً مريحاً في مصيف جميل ؟

ـــ أستطيع أن أخمن سبب الخلاف بينكما ، وهو

سبب مهم لايسمح لها بالعودة إلى فندق بلودان ، كل الفنادق إلا هذا .

ـــ أنت ذكية .. لقد خمنت السبب .

ـــ لو كنت في موضع رجاء .. لما عدت إلى الفندق الذي أهنت فيه ، لأقابل الرجل الذي أهانني ؛ استغرب تصرف امرأة مثقفة مثلها على هذا النحو .

ـــ هل قابلته البارحة ؟

ـــ نعم ، بقيا يتحدثان منفردين طوال السهرة ، ألم تخبرك رجاء ؟

ـــ لا لم تخبرني .

ـــ يحتمل أنها لم تجد الوقت المناسب .

ـــ بقينا نتغدى معاً وقتاً طويلاً ، هل عرفت شيئاً من حديثهما ؟

ـــ بقيت بعيدة عنهما ، ولم يخبرني محب . دعنا من موضوعهما ، لقد تخاصم والدي مع محب ، بسبب سلوكه ، وسيشتري حصته في المكتب .

ـــ ألهذا السبب رحل محب عن الفندق باكراً ؟

ـــ أظنه رحل هارباً من رجاء .

ـــ أرجوك مازالت رجاء خطيبتي .

ـــ أنا لم أقصد إهانتها ، ولكن الحكاية واضحة ، اختلفتما معاً بسبب محب فسعت إليه ، ليشتد الخلاف بينكما ، وتفسخ الخطبة ، فتتزوج رجاء من محب طمعاً في ماله . ولكنها واهمة ، لأن والدي هو الغني الحقيقي في الشركة . وسيفصل محباً ، لِمَ لا تشتري حصة محب في المكتب ، وتصبح من الأثرياء ؟

ـــ أنا ..

ـــ لِمَ لا .. سيحتاج والدي إلى خبير في العقود مثلك ، قرر بسرعة لأعرفك على والدي الليلة وتتحدثا في الموضوع ملياً .

ـــ أوقعتني في حيرة شديدة ، وأخشى ألا أجد المال الكافي لشراء حصة محب ..

ـــ سيساعدك والدي ليخلص من محب ، فكر في الموضوع ، الحمد لله لأني حجزت لك غرفة في الفندق ، ستتحدثان الليلة وتنزلان غداً لإنهاء العقد بينكما ، وتداوم في مكتبك الجديد .

كان عرض سميرة مغرياً جداً لسليم ، فنسي مشكلة

رجاء ، وبقيا جالسين في ندوة المسبح ، ومضى الوقت سريعاً ، فمضت الساعة الأولى ، ومضت الساعة الثانية ، وكانت رجاء قد نزلت إلى البهو ، ولم تجد خطيبها ، فبحثت عنه في أرجاء الفندق ، حتى وجدته برفقة سميرة في ندوة المسبح .

رأتهما من بعيد ، ولاحظت انسجامهما التام . فكانا غارقين في الحديث حتى أنهما لم ينتبها عند وصولها . فبقيت واقفة برهة وسمعت سميرة تقول لسليم :

ـــ سنرقص معاً الليلة أم أنك تخاف من خطيبتك .

نهضا مرحبين بقدوم رجاء ، وظهر سليم مرتبكاً ، كأنه ضبط بذنب مشهود فأسرع وجلب مقعداً لخطيبته وأشار إليها بالجلوس .

جلست رجاء ممتعضة وقالت ترد على سؤال سميرة :

ـــ لا يوجد خوف بيني وبين خطيبي ، لأن بيننا ثقة تامة ، تصوري أنني قابلت محباً ليلة البارحة ، وطلبت منه أن يعتذر عن عمله الطائش ، ولم أخبر خطيبي بالحادث . أليس كذلك ياسليم ؟

ازداد ارتباك سليم ، فقال باقتضاب :

ــ نعم .. نعم .

ــ ولا مانع عندي أن ترقصا معاً طوال الليل ، ولكني جهزت حقيبتي وأعلمت الإدارة عن عزمي على مغادرة الفندق .

ضحكت سميرة بشدة ، وضحك سليم ، ونظرت رجاء مستغربة السر الذي جمعهما معاً ، وأضحكهما معاً .. فقالت بعصبية :

ــ ما الذي يضحككما في كلامي ؟

ردت سميرة وماتزال تضحك بشدة :

ــ ستغادرين الفندق ، بينما حجز خطيبك غرفة ، وسيبقى الليلة .

نظرت رجاء مستنجدة بخطيبها ، لتتأكد من صحة الخبر ، فقال سليم :

ــ لا توجد مشكلة ، سنعلم الإدارة عن رغبتك في البقاء ، ونسهر الليلة سوية في صالة الفندق .

فهمت رجاء من كلام خطيبها ، أنه يفضل البقاء في الفندق ، وخشيت أن تصر على الرحيل فيبقى خطيبها في الفندق ، فتضطر إلى تركه لقمة سائغة بين يدي سميرة .

توالت هزائم رجاء أمام كل الذين قررت أن تتحداهم ، بالعودة إلى الفندق ، وحطمها الأسى ، فجلست نادمة ترقب مدى العلاقة التي قامت بين الاثنين في غيابها ، ولامت نفسها لمَ لم تصارح محباً ، وتعلمه بعدم انسجامها مع سليم .

لاحظت سميرة أن الوقت قد حان لترك الخطيبين معاً ، ليكتشفا عمق الهوة التي باعدت بينهما فنهضت قائلة :

ــ سأترك لكما المجال لتنفردا ببعضكما كخطيبين يتوقان إلى إنصراف الناس عنهما .

قال سليم :

ــ ابقي معنا ، لا يوجد مانخفيه عنك .

ــ سأذهب لأبدل ثيابي بثياب السهرة ، وأفسح لك المجال لتغازلها إلى اللقاء في صالة الفندق .

○

ابتعدت سميرة وتنفست رجاء الصعداء، ولكن الصمت ساد بين الخطيبين. كان سليم يفكر في لقائه بأبي سميرة، ويعالج ما سيدور بينهما من حديث، فهذه فرصة العمر أمامه للإثراء بسرعة، وكانت رجاء تفكر في الأسباب التي أزالت عصاب خطيبها، وجعلته غير مهتم بما جرى بينها وبين محب.

قطع سليم الصمت قائلاً:

— هيا إلى صالة الفندق.

تبعته صاغرة، فجلسا إلى الطاولة، ثم ظهرت سميرة مع أبيها، فنهض سليم تاركاً خطيبته وحدها، بعدما قال لها:

— تمتعي بالإستماع إلى الموسيقى، ريثما أعود إليك، لدي عمل مع والد سميرة.

غاب سليم عن نظرها، وبقيت رجاء وحيدة، فلامت نفسها على بقائها، وتابعت بقاءها في الفندق على مضض.

عاد خطيبها مع سميرة وأبيها، فاستقبلتهم وبقيت كامدة، بينما انصرف ثلاثتهم إلى الكلام والضحك، وشربوا

نخب الإتفاق، ونهضت سميرة لترقص مع سليم، فقالت لها:

— سأراقصه اعتماداً على ثقتك الكبيرة به.

كانت سميرة تجيد الرقص وتهواه، وصممت على أن تغيظ رجاء، فتوسطت الحلبة مع سليم، ورقصت بنشوة، فكانت تنفر مبتعدة عن سليم وهي تهز ردفيها ثم تقبل عليه وهي تهز صدرها، وتتخابث بعينيها وضحكتها وتغمز وتتغاوى فبدت جذابة وهي ترقص، وبدا صدرها كأنه يخفي فرخي حمام يحاولان الإفلات ثم عزفت الفرقة لحناً هادئاً، فاقتربت سميرة من سليم وأسلست قيادها ليضمها إليه.

نظر سليم في اتجاه رجاء مرتبكاً في أول الأمر، ثم نسي ارتباكه، وضم سميرة غارقاً في نشوة الرقص، ونشوة عطرها المثير، وصار يحدث نفسه:

— ليتني عرفت سميرة قبل أن أخطب رجاء، إذن لكانت لي نعم الزوجة، فسميرة من أسرة غنية، بينما رجاء من أسرة فقيرة، ثم أن سميرة مرحة ومتواضعة ومثيرة بينما رجاء حزينة وصلفة وكامدة..

تنهد سليم بأسى ، وسمعت سميرة تنهده فسألته :

ـــ ما بك ؟

ـــ لا شيء . .

شاهدت رجاء ما كان يجري على الحلبة ، فاشتد ألمها وبان الغضب جلياً في نظراتها ، ولاحظ عبد الصمد الذي انفرد بها حزنها ، فحاول أن يخفف عنها فقال :

ـــ لا أخفي عليك سرّي ياآنسة رجاء ، إنني أحسد محباً على الحياة التي عاشها ، وطالما تمنيت لو كنت أصغر سناً لأتعلم مثله الرقص .

لم تجب رجاء بكلمة فاسترسل عبد الصمد قائلاً :

ـــ استغرب كيف يترك خطيبك ، فتاة جميلة مثلك ، ليراقص ابنتي ، ولو كنت بدلاً عنه ، لما فرطت بالإبتعاد لحظة عنك ، حتى لا أحرم من رؤية حسنك الرائع .

نظرت رجاء مبهوتة إلى عبد الصمد الذي استدرك قائلاً :

ـــ إياك أن تسيئي الظن بكلامي ، أنت في عمر

ابنتي ، إنما أحببت أن اؤانسك في غياب خطيبك ، وسأقدم لك هدايا ثمينة في ليلة عرسك . هيا ابتسمي .

لم تتأكد رجاء من مراد عبد الصمد ، فابتسمت ببرود ، فأمسك عبد الصمد راحتها فوق الطاولة ، وراح يثني أصابعها مداعباً كأنها طفلة صغيرة ويعدد الهدايا التي سيقدمها قائلاً :

ـــ سأشتري خاتماً من الماس لهذه الإصبع .

ثم نقل يده حول رسغها وقال :

ـــ سأشتري سواراً من الماس لهذا الرسغ الجميل ، وقرطا لاذنيك ، وعقداً لهذا النحر الجميل ، وكلها من الماس ولو كلفتني جملتها مائة ألف ، هيا ابتسمي وقولي لي أين سنلتقي غداً لنذهب إلى سوق الصاغة ، وتختاري الهدايا بنفسك بقيمة مائة ألف .

وبدأ عبد الصمد يلحمس على بشرة ساعدها ، ويبتسم بخبث ، فسحبت رجاء يدها باشمئزاز ، وشعرت بتفوقها على مثل اولئك الأشخاص ، بالخصال الحميدة التي مارستها طوال عمرها ، فعادت الثقة إلى نفسها ، فنظرت بكبرياء وأنفة وقالت :

ـــ ليت محباً كان معنا الآن ، ليعيد على مسامعك أقوالي له ، لتعرف موضعك ياعبد الصمد ، وتلزم أدبك . أنا لست بحاجة إلى مؤانستك ، اذهب وآنس زوجتك التي تهملها وحيدة منذ صرت غنياً .

ـــ لقد أهانك محب ولم تنبسي بكلمة أمامه ، لأنه يعرفك على حقيقتك .

ـــ ما أغباك ياعبد الصمد ، لن تفهمني حتى أحدثك بصراحة كما صارحت محباً . اسمع ياعبد الصمد ، لقد انتميت إلى مدينتي ، ولم تتعرف فيها إلا على سقط المتاع ، لأن سقط المتاع هو أول ما يتعرف عليه الغريب في مدينة كبيرة كدمشق ، فظننت مدينتي كلها سقط المتاع ، وأنك تستطيع أن تشتري كل نفس فيها بالمال الذي جمعته بخبثك ودهائك وتنكرك لخالقك .. لا ياعبد الصمد .. أعيش حياتي كلها كدمشقية فاضلة وفقيرة ، ولا أبيعك حذائي العتيق بكل أموالك اذا كنت تريد أن «تلحمس» على جلده ، بالإحساس الدنيء الذي أظهرته لي .

حاول عبد الصمد أن يرد الإهانة فقال :

ـــ أنت فاجرة وحقيرة .

قاطعت رجاء عبد الصمد :

ـــ اخرس واستمع إلي ، أنا لم أنه كلامي ، أنا لا مانع عندي في أن تنتمي إلى مدينتي ، على شرط أن تضيف مثلاً إلى مثلها ، وتنشيء أسرة عريقة بفضائلها المتوارثة ، تتضافر مع بقية الأسر ، لتحقق المجتمع النبيل ، وتبرز وجه دمشق المتطور الفاضل الرائع . انظر إلى ابنتك وهي تذوب لذة بين أحضان رجل غريب .

ـــ أنت امرأة خليعة ، داعرة ، وسأنصح خطيبك سليم بعدما صار شريكي بالخلاص منك .

اتضحت الصورة أمام عيني رجاء ، وفهمت أن طريقها افترقت عن طريق خطيبها سليم ، ولاسيما بعد الخصام الذي قام بينها وبين عبد الصمد ، فوقفت بكبرياء ثورتها وسحبت الخاتم من اصبعها ووضعته على الطاولة قائلة :

ـــ لن أحيجك إلى أكاذيب جديدة ، هذا هو خاتم الخطبة ، أعطه إلى سليم عند عودته إلى الطاولة .

وضعت الخاتم على الطاولة ، ونظرت باحتقار إلى

خطيبها وإلى عبد الصمد ، ورفعت رأسها بشمم أصيل وانصرفت .

عاد سليم مع سميرة إلى الطاولة ، فوجد خاتم الخطبة في انتظاره ، فبهت لأول وهلة ، وأسرع ليبحث عن رجاء ، فتبعته سميرة ، وأمسكت به وقالت :

ــ اهدأ ياسليم ، وكن عاقلاً واترك الأمر حتى الصباح .

ــ سأقابلها ، وأعاتبها بقسوة ، أين الثقة التي كانت تتحدث عنها وتفاخر بها ، إني لا أجد تفسيراً لعملها الطائش .

ــ تذكر حديثي معك ياسليم .. ألم نتوقع معاً إقدامها على فسخ الخطبة ؟؟ وها هي قد فعلتها .. متعللة بوجودك معي .

ــ إنني لم أفهم تصرفها ، تمنعني من الإحتجاج على لقائها بمحب ، ليلة كاملة في الفندق ، وتثور لأننا كنا نرقص معاً .

ــ دعها وشأنها حتى تثوب إلى رشدها ، فإن رجعت صاغرة إليك ، طالبة السماح على أخطائها ، فأهلاً بها ، وإن لحقت بمحب ، فإلى جهنم وستين داهية .

شدت على يده وابتسمت ، ونظرت إليه برقة :

ــ أتتركني الآن من أجل امرأة باعتك بالقشور ؟؟ أرجوك تعالَ نكمل سهرتنا .. مازال أبي في انتظارك .

○

تمددت رجاء في فراشها ، وماتزال متهالكة أعصابها ، فلم يطل أرقها ونامت نوماً هنيئاً ، تاركة مستقبلها بين يدي الله . ونهضت باكراً وغادرت الفندق عائدة إلى منزلها .

أما سليم ، فنهض متأخراً ، وعلم برحيل رجاء ، فلاذ بسميرة وأبيها ، وركب سيارتهما الفاخرة التي كانت تقودها سميرة وتبادله النظرات طوال الطريق حتى أوصلته إلى مكتبه ، قائلة :

ــ متى سنلتقي بك ؟

ــ سنلتقي مساء اليوم في مكتب أبيك .

الخاتمة

صعقت أم رجاء، عندما شاهدت ابنتها عائدة إلى المنزل، ولاحظت اصبعها طليقاً من الخاتم، فسألت بسرعة :

ـــ أأضعت خاتمك يارجاء، أم فسخت خطبتك ؟؟

ـــ الزواج قسمة ونصيب، ياأمي، وأنا لم يكتب نصيبي على سليم .

تحسرت أم رجاء قائلة :

ـــ اخطأت ياابنتي، كان سليم عريساً لائقاً، ونصحتك بعدم السفر وحدك إلى بلودان، أرأيت عاقبة تهورك، فرطت بخطيبك وليس في يدنا عريس غيره .

حاولت رجاء أن تشرح وضعها لأمها، فعجزت أمها عن فهم إحساسها فاضطرت رجاء لأن تصد أمها قائلة :

ــ أرجوك ياأمي أنا مقتنعة بما فعلت ، ولست نادمة ، اذا كان سليم يحبني فسيعود إليّ ، وإلا أنا في غنى عن زوج مثله ، هل فهمت ؟

ــ أعانك الله على عقلك ، لن تجدي زوجاً اذا بقيت تفكرين هكذا .

ــ لا أريد أن أسمع ملاحظة منك في هذا الموضوع بعد الآن ، إنني في أحسن حال ، فلا تعذبي نفسك من أجلي .

○

عادت رجاء إلى حياتها الرتيبة ، تقضي معظم أوقاتها في المنزل ، ولا تخرج منه إلا مضطرة لشراء حاجياتها ، وجلبت مجموعة من القصص العاطفية لتتسلى بقراءتها ريثما تنتهي العطلة الصيفية ، وتفتح المدارس أبوابها ، فتجد السلوان في عودتها إلى التدريس .

تماسكت رجاء ، ولم يخفَ حالها عن أمها ، فهي تهرع إلى الهاتف ملهوفة وتعود قانطة ، وكثيراً ماضبطتها أمها ساهرة

في غرفتها قرب النافذة ، تتطلع إلى الطريق متوقعة أن تشاهد طيف رجل يقرع الباب .

مضى الأسبوع الأول ، وكاد ينصرم الأسبوع الثاني ، وكانت رجاء قد قطعت الأمل من عودة سليم إليها ، فباتت تنتظر محباً وتفكر فيه . وتستغرب كيف لم يبلغه خبر فسخ خطبتها حتى الآن ..؟ ألم يقابل سليماً في المكتب بعدما أصبح سليم شريكاً لعبد الصمد ؟؟ وإلامَ تطورت العلاقة بين سليم وسميرة ؟؟ أتراه يتجاهل حالها ، حتى يسمع منها دعوة صريحة ، تكشف عن رغبتها في الزواج منه ..؟؟

بحثت رجاء عن وسيلة تمكنها من معرفة مايجري في مكتب محب ، دون أن تمس كرامتها ، أو تتنازل عن كبريائها ، فلم تجد إلا أن تتصل بالهاتف بمحب ، فصممت على الإتصال به لتقول له :

ــ اتصلت بك ، لأعفيك من وعدك لي بالإعتذار لخطيبي ، لأن الأمر انتهى بيننا ، وعدت حرة .

وخشيت أن يضحك محب ساخراً ويدعوها إلى لقائه

في مكتبه أو شقته فماذا تفعل آنئذ..؟؟ صار وضعها حرجاً، ولكنها حزمت أمرها على الإتصال مهما كانت النتائج، فأخرجت بطاقة محب من حقيبتها، وأمسكت السماعة وأدارت قرص الهاتف، ورن الجرس وخفق قلبها، وانتظرت مرتبكة، وأجابها صوت سليم:

ـــ ألو.. مكتب المقاولات.. عبد الصمد وشركاه.. من المتكلم؟

أعاد سليم السؤال مراراً، ولم يسمع جواباً على سؤاله، فقد ارتبط لسان رجاء من الدهشة، فمر وقت قبل أن تغلق السماعة، وتجلس يائسة على المقعد.

نظرت إلى بطاقة محب مرة ثانية، وقررت أن تتصل برقم منزله، ارتعشت أصابعها وهي تطلب شقته، وشعرت بحرج شديد، ولكنها تابعت الإتصال حتى رن الجرس، وكانت خائفة من أن يرد عليها صوت نسائي، يطعن أملها في محب، وينهي لهفتها إليه. فلم يجبها أحد، ففرحت وضحكت بصوت عالٍ، وكررت الإتصال في ساعات متفرقة من الليل والنهار،

حتى تأكدت من غيابه عن المدينة، فازداد فرحها وبقيت تنتظر عودته.

○

عاد محب من سفره، وقد أنجز شراء مزرعة قريبة من ضيعة صغيرة، هي «دركوش»، تقع على ضفاف العاصي، وتتصف بوفرة مواسمها، وحسن مناظرها. وكان أول عمل قام به بعد وصوله، هو إتصاله بعبد الصمد، الذي رحب بعودته ورحب بشراء حصته.

ذهب محب إلى المكتب لتوقيع عقد البيع، ففوجىء بجلوس سليم خلف مكتبه وشعر بامتعاض بالغ، حين كلمه عن عزمه على شراء حصته، وقرأ اسمه على نسخة العقد، فأعاد محب الأوراق فوق طاولة المكتب وقال بحزم:

ـــ لقد عدلت عن بيع حصتي.

نظر سليم مستغرباً، وضحك عبد الصمد متشفياً من محب وقال له:

ـــ ليتني قبضت رعبوناً منك ، حتى ألزمك بالبيع ، ولكني اعتمدت على كلمتك وحدها ، ونسيت أن كلمتك ، لم تلزمك في السابق بأي وعد قطعته على نفسك .

تألم محب من تعريض عبد الصمد بسلوكه ، وقال :

ـــ مازلت عند كلمتي ، ولكني لن أبيع حصتي إلى المحامي سليم مهما كان الثمن مرتفعاً ، أقبل أي مشترٍ إلا هذا .

قال عبد الصمد :

ـــ كنت أستطيع أن أشتريها منك ، ثم أفرغها بدوري إلى شريكي سليم ، ولكننا أحببنا الصراحة ، فلمَ لا تكون صريحاً معنا ، وتخبرنا أي مكر تخفيه عنا .

قال سليم :

ـــ أتكرهني يامحب ، لأنني كنت خطيب رجاء ؟

نظر محب إلى سليم ، وفهم مغزى عبارته ، فابتسم وقال :

ـــ كنت أمازحكما ، لأطلع على خفايا نفسيكما ، ووقع شيكاً بالمبلغ لأوقع لك أوراق العقد .

وقع محب العقد ، واستلم الشيك ، وقرأه بصوت مرتفع ، وكان الشيك من دفتر عبد الصمد ، فابتسم محب بخبث وهو ينظر إلى خاتم سليم ويسأله :

ـــ من هي سعيدة الحظ خطيبتك الجديدة ؟؟

ارتبك سليم ، ثم تمالك نفسه وقال :

ـــ إنها ابنة خالتك سميرة .

ـــ سميرة نعم الزوجة ، ستسعدك كثيراً ، إذا كنت تحب الرقص والسهر . أستودعكما الله .

قال عبد الصمد مستدركاً :

ـــ ألن تحضر حفلة عقد قرانهما ؟

قال محب مبتسماً :

ـــ لن اتأخر إذا تمت قبل مغادرتي دمشق ، سأكون في المستقبل في مزرعتي قرب ضيعة دركوش . آمل أن تزوروني ولو مرة في العمر .

ـــ اطمئن سنأتي ، لأننا قررنا توسيع الشركة ، حتى تشمل ضيعتك دركوش .

وضحك عبد الصمد ضحكاً سمجاً ، وسايره سليم في ضحكه ، منفعلاً دون إرادة ، فنظر محب نظرة رثاء إلى سليم وخرج .

○

واظبت رجاء على الإتصال بشقة محب ، في أوقات معينة متباينة ، حتى ارتفعت السماعة ، وتم الإتصال ، وسمعت محباً يرد على الهاتف قائلاً :

ـــ آلو

ـــ آلو .. محب .

ـــ طبعاً «محب» .. أنا محب لك .

ارتبكت رجاء وخفت صوتها وهي تقول :

ـــ أنا رجاء .. اتصلت بك لأعفيك من الإعتذار لخطيبي .

ـــ اسمعي يارجاء ..

كاد محب أن يعلم رجاء بخطته الجديدة ، ولكنه خشي

أن يضعها أمام هذا الشرط الصعب ، قبل أن يوضح لها هدفه من النزوح عن المدينة ، ويوطد علاقته بها ، فبدل الموضوع قائلاً :

ـــ كنت غائباً ، وعلمت اليوم بعد عودتي ، بنبأ فسخ خِطبتك ، وكان أسعد خبر سمعته في حياتي .. فهل تقبلين بي ..؟

صمتت رجاء ولم تجب ، وتملكتها الحيرة ، بعدما صار حلمها واقعاً ، فتابع محب قائلاً :

ـــ لمَ الصمت ..؟ إنني أنتظر جوابك .

ـــ فاجأتني بطلب يدي .

ـــ هل كنت تتوقعين أن أنكص عن خطبتك ، بعدما التقينا وساهم كلانا في فسخ خطبتك ؟

ـــ لا .. طبعاً .

ـــ لمَ المماطلة إذن ..؟

ـــ أمهلني بعض الوقت ، أريد أن أفكر في الأمر .

ـــ سأمهلك .

لفظ محب كلمته باستسلام ، وشعرت رجاء بالإحباط الذي ظهر في صوته فقالت بمودة :

ـــ استمهلتك يامحب ، لنخبر بعضنا بعضاً ، لا أريد أن نرتبط بخطبة ثم تفشل خطبتنا .

ـــ كما تريدين ، أعطني رقم هاتفك وعنوانك لأتصل بك عند الضرورة .

أعطت رجاء عنوانها بالتفصيل ، وقالت قبل أن تغلق الهاتف :

ـــ تصبح على خير ، انتبه إلى نفسك ، سأكون في انتظار أخبارك .

صار محب فرحاً بعودة رجاء إليه ، وقلقاً لأن الأمر مايزال في علم الغيب ، وصارت رجاء مسرورة بحصولها على عريس مغرم بها منذ تسع سنوات ، ولكنها تخاف من أن يحن بعد الزواج الى سوء سيرته ، فكانت مصممة على أن تبدل سلوكه قبل أن ينالها .

انصرف محب إلى إنجاز بعض الأعمال في دمشق ، وقد أزمع على مغادرتها إلى المزرعة ليشرف بنفسه ، على الترتيبات التي قرر إضافتها ، من أجل راحة أسرته في المستقبل. وعندما

أقبل المساء شعر بحنين إلى رؤية رجاء قبل سفره ، فقرر أن يتصل بها ، ولم يكد يسمع صوتها ، ترد على الهاتف ، حتى ضغط زر المسجلة ووضع السماعة أمامها ، لتسمع الأغنية العاطفية التي اختارها وكانت أغنية «نار ياحبيبي نار» .

سمعت رجاء صوت عبد الحليم يغني عبر الهاتف «حبك نار ، بعدك نار» ، فعرفت وقالت :

ـــ مابك يامحب ؟

ـــ مضناك جفاه مرقده .. فهل أنت ساهرة ؟

ـــ مازلنا في المساء .

ـــ تصوري حالي بعد منتصف الليل ، سأقلقك وأزعج أبويك ، أو ألقاك بعض الوقت ، لأخفف من شوقي إليك .

ـــ ليتك اتصلت بي بعد الظهر ، لأمكن لقاؤنا في مكان عام .

ـــ سأسافر غداً أو بعد غد إلى الشمال من أجل أعمالي ، فهل أسافر دون وداع . ألسنا خطيبين ..؟

ـــ لا تحرجني يامحب ، مازال أمرنا غير محتم .

ـــ اسمعي يارجاء ، لن أحرجك ، سأكتفي برؤيتك من بعيد ، سأسهر في سيارتي قرب منزلك .

قطع محب الإتصال ، فأغمضت رجاء عينيها فرحاً بلهفته إليها ، وسعت بسرعة إلى النافذة تنتظر وصوله . وشعرت لأول مرة بإثارة عجيبة في نفسها ، لم تشعر بها أيام خطبتها لسليم ، فبدا حدث اللقاء هاماً ، إنه موعد غرامي مع إنسان يحبها ، وتأكدت رجاء أنها تحبه ، وإلا مامعنى أن يخفق قلبها مع صوت كل سيارة مرت ، ومامعنى هذا النزق في تلفتها بحثاً عنه ، بل ماسبب هذا الخوف من تأخره ، ولِمَ كل هذه الوساوس خوفاً من أن يهمل موعده ؟؟

تأخر محب حتى عثر على عنوانها ، ومرت سيارته أمام منزلها ببطء شديد ، كمن يستوثق من رقم المنزل ، فأطلت رجاء بنصفها من النافذة خائفة ألا يراها ، ولوحت بيدها له ، فدار محب بسيارته عدة مرات ، ثم أوقف سيارته في ركن مقابل لمنزلها ، ولوح بيده لها .

أحيا هذا اللقاء الجميل الخجول المبتور ذكرياتهما معاً ، يوم كان محب ينتظرها ليلقي السلام عليها ، بابتسامة أو بإيماءة ، وكانت ترد عليه السلام بابتسامة ، أو بنظرة رضى .

عمر الحب قلب رجاء ، وأعاد إليها نشاطها وحيويتها ،

كما لو أنها ماتزال رجاء المراهقة قبل تسع سنوات ، فاستصعبت أن يقتصر الوداع بينهما على نظرات مشوقة من بعيد ، فخرجت من المنزل ، وتقدمت من سيارة محب وفتحت الباب وركبت إلى جانبه .

قاد محب السيارة مبتعداً عن الحارة ، وكان ينظر إليها والسعادة بادية في وجهه ، وكانت تنظر إليه وتطرق خجلاً ، فقطع الصمت بينهما قائلاً :

ــ رجاء .. أنظر إليك أملاً أن ترويني النظرة ، فيشتد حنيني إلى احتوائك في عيني . أنا عاجز عن قيادة السيارة والنظر إليك .

قالت رجاء :

ــ أوقف السيارة في مكان آمن ، لأنني لا أستطيع أن أتأخر عن العودة لقد خرجت دون أن أعلم أمي .

طار محب بالسيارة صاعداً على جبل قاسيون ، وأوقفها في مكان مرتفع ، يطل على مدينة دمشق . والتفت نحوها فالتفتت رجاء نحوه فقال :

ــ رجاء .. ومحب .. هانحن وحدنا بعد تسع سنوات .

ــ هل أنت سعيد يامحب ؟؟

ــ كان عذاب حبك جميلاً ، فلاتسأليني عن فرح حبك .

مد محب يده إلى درج السيارة ، وأخرج مشطها العتيق وقدمه إليها :

ــ خذي يارجاء المشط الذي التقطته بعد رحيلك عن الحارة ، فلا أظنني بحاجة إلى الإحتفاظ به بعد الآن .

ــ أراه جديداً ، كأنه ليس مشطي .

ضحكا معاً ، من المفارقة الساخرة ، ألا يكون مشطها ، فاستدرك محب قائلاً :

ــ لقد استعنت بصائغ ماهر ، أصلحه بصياغة دقيقة . افحصيه .

أمسكت رجاء المشط وقلبته بين أصابعها ، فشاهدت إطاراً ذهبياً يحيط به من ثلاثة جوانب ، ورأت الإطار مرصعاً بالماس ، وأضاء محب ضوء السيارة برهة ، لتميز رجاء الشعرات العالقة بين أسنانه .

وأدخل محب أصابعه في شعرها وعبث به قائلاً :

ــ أليس هذا الحرير الذي بين أصابعي شعرك ، أتريدين خبيراً يقارن بين شعرات المشط وهذا الحرير ؟

وواصل العبث بشعرها ، فمدت رجاء يدها وأبعدت يده ، وناولته المشط قائلة :

ــ أرجوك يامحب ، لا أستطيع قبول هديتك الآن .. هذا المشط غالٍ جداً ، يفوق سعره مجموع رواتبي في عام كامل .

استغرب محب موقف رجاء ، فقال بحدة :

ــ دعينا نتكلم بصراحة ، هل تريدينني عريساً أم لا ؟

ــ لا أريد سواك يامحب ، كانت نفسي تتوق إليك منذ حداثة سني ، وكنت أستلطفك وأسعى إليك في الحقل ، **ولكني كبت عاطفتي ، لأنه كان يستحيل علي أن أربط** مستقبلي آنئذ مع فلاح ترك المدرسة ، وانصرف إلى الفلاحة .

ــ دعينا من الماضي ، ولا تكذبي يارجاء ، يعذبني الماضي ولايسرني .

ــ لاتخطىء يامحب ، صبوت إليك مثلما صبوت إلي ،

ولكنني أهملتك خوفاً من كلام الجيران ، وضغط سخريتهم اللاذعة علي وعلى والدتي «هل تزوجين رجاء الى هذا الفلاح بائع الخضار على الحمار» فتقول أمي لا ، وأنكر بدوري .

ـــ رجاء أرجوك ، إنني أحبك ، فلاحاجة بك لأن تدغدغي رضائي عنك ، كدت أتلف روحي من أجلك .

أطرقت رجاء وقالت بصوت منخفض :

ـــ سبرت أعماق نفسي ، فاكتشفت أنني أحبك ، مثلما تحبني ، وأنني أغار عليك ، أكثر مما تغار عليّ .

سمع محب من مبسم رجاء العذب ، الكلمات التي ظلت حلماً يراود خياله ، ويسهده طيلة تسع سنوات ، فغمره فرح شديد ، وذابت نفسه رقة ، فأقبل على رجاء وهو ينادي :

ـــ رجاء حبيبتي ، ياأميرة دمشق ، أتقلد حبك وساماً أفاخر به الناس .

وأمسك محب يد رجاء ورفعها قليلاً ، وانحنى قليلاً ، وراح يلثم أناملها لثماً رفيقاً ، تكاد شفتاه تمسان الأنمل الرقيق المصبوغ بالأحمر ، لتلثم الذي يليه وتحط على الآخر ، منتقلاً

من الخنصر إلى البنصر ، كنحلة تلتقط رحيق الأزهار الحمر ، ثم قبل راحتها قبلة عميقة أودعها نشوته ، فاستفزت القبلة مشاعرها جملة .

ارتعشت رجاء وشحب لونها ، وميزت الخطر الـذي ينتظرها على يدي خبير كمحب ، اذا وهنت إرادتها ، ولم تنسحب فوراً قبل أن تحبط النشوة التي انتقلت من شفتيه الساخنتين إلى راحة كفها ، كل مقاومة لديها . وكانت أصابعه القاسية قد تسللت خلف زندها عند الأبط . ففتحت باب السيارة وجذبت جسمها بعيداً عن محب وابتعدت مضطربة .. يرتعش كيانها من النشوة والخوف .

تبع محب رجاء وجلاً وناداها :

ـــ رجاء .. رجاء .. أرجوك يارجاء .

التفتت رجاء وقالت مرتجفة :

ـــ أبعد عني لا أريد أن أراك .. لم أعد أريدك ، أنت رجل خطير وفاسد .

ـــ ارجعي إلى السيارة ، لتهدأ أعصابك ، وأوصلك إلى

منزلك ، أتوسل إليك أن ترجعي حتى لايقتلني خوفي من فقدك ثانية ، أرجوك يارجاء ، سأوصلك ولـن أمسّك ولـن أكلمك . أرجوك ارجعي حتى أعيش على أمل رضاك عني .

كان صوت محب حزيناً وباكياً ، وبقي واقفاً أمام رجاء ينتظر قرارها ، فرقّ قلبها لحاله ، ورجعت معه إلى السيارة ، وبقيا صامتين ، ثم أدار محب محرك السيارة وانطلق بها متجهاً إلى بيت رجاء .

نزلت رجاء من السيارة ، فمد محب يده بالمشط أمام وجهها ، ورجاها بعينيه أن تقبل هديته ، فأهملتها رجاء ، وفارقته مبتعدة إلى منزلها .

لم يبتعد محب بسيارته مسافة كبيرة ، حتى شعر بحنين إلى العودة قرب منزل حبيبته ، فعاد ودار حول المنزل مراراً ، وانتظرها وقتاً طويلاً ، آملاً في أن يراها تطل من النافذة ، فيعرف من نظراتها ، صدودها أو وصالها .

لم تتوقع رجاء عودة محب ، فأسدلت ستار النافذة ، وأنارت الغرفة وأبدلت ثيابها ، وأطلّت أمها برأسها من الباب وسألتها :

ــ أين كنت يارجاء .. شغلت بالي ؟

ــ ضاق خلقي من الحر ، فتجولت في الشارع .

ــ لاتخرجي وحدك مرة ثانية ، وإلا أساء الجيران الظن بك .. افتحي النافذة وارفعي الستار .. أفضل لك .

ــ أغلقتها ريثما نزعت ثيابي ، افتحيها ياأمي ..

فتحت أم رجاء النافذة ، ورفعت الستار ، واطفأت النور ، واستلقت رجاء تحلم في سريرها فحدثت نفسها :

ــ كان يجب أن أصده لأحافظ على عفتي ، ولو لم أصده ، لكنت الآن بين أحضانه .. نعم مافعلت !

وقالت :

ــ لمَ قسوت على محب ، وكنت أسمح لخطيبي سليم أن يقبل يدي وذراعي ؟ ألأن قبل محب تختلف عن قُبل سليم ؟؟ فهل كان الذنب في القُبل أم في إحساسي تجاهها ..؟ أيظن أنني قاطعته ، فينصرف عني ..؟ سيكـون غبيـاً إذا صدق صدودي .. إنني أحبه وأشتهيه مثلما يشتهيني .. وسيضطرني إلى الإتصال به .

تفصد العرق حول رقبة رجاء ، وتحت أبطيها ، وأحست

بلزوجة بشرتها ، وباللهيب الذي يشتعل تحت جلدها ، فنهضت من السرير ، واتجهت إلى الحمام وخلعت ملابسها ، واغتسلت بماء بارد ، وتوضأت وصلّت ، وطلبت من ربها أن يهبها محباً زوجاً حلالاً ، ويلهمه سواء السبيل .

يئس محب من رؤية رجاء ، فعاد إلى منزله ، وبقي قلقاً متوتر الأعصاب ، فصمم على أن يتصل برجاء ، ليرتاح باله قبل الغد .

رن جرس الهاتف في بيت رجاء ، فهرعت رجاء لترد ، ولكن أمها وصلت قبلها وأجابت :

ــ آلو .. آلو ..

ثم أعادت السماعة وقالت :

ــ من هذا الثقيل في هذا الوقت .. لقد قطع الإتصال .

قالت رجاء :

ــ لاتتعبي نفسك إذا رن مرة ثانية ، سأرد عنك .

نظرت أم رجاء إلى ابنتها نظرة شك وريب وقالت :

ــ هل تنتظرين مكالمة بعد هذا الوقت من أحد ؟؟

أطرقت رجاء وقالت دون أن تجرؤ على مواجهة أمها :

ــ نعم .. أتوقع مخابرة من خطيبي السابق سليم ، سأنقل الهاتف إلى غرفتي .

نقلت رجاء الهاتف ، ورن الجرس ، وأمسكت السماعة ، ولم تسمع أحداً يخاطبها ، فقالت مشجعة بصوت رقيق دافىء :

ــ آلو .. آلو .. من المتكلم .. أنا في الانتظار .

خاطبها محب بصوت خافت :

ــ آلو رجاء .. أنا محب .. بقيت ساعة أمام منزلك لآراك تطلين من النافذة ، ثم قطعت الأمل ، فعدت إلى البيت ، ما الذي شغلك عن النافذة ؟

ــ كنت أغتسل ، فالحر شديد ، ثم صلّيت وسألت الله أن يلهمك سواء السبيل .

ــ لست شقياً يارجاء كما تتصورين .. ما الذي أغضبك في سلوكي اليوم .

— صنت نفسي وحافظت على عفتي مدى حياتي ، لأهب نفسي لمن يحبني وأحبه .

— ألسنا حبيبين ؟؟

— نعم ، نحن حبيبان ، ولكنني فجعت من خبرتك التي كادت تحبط عزيمتي ، فآلمني أن أهب نفسي إلى فاسق لم يصن نفسه ، فتشددت ونفرت منك .

— لاتنسي يارجاء ، أنك المسؤولة عن قدري ومسلكي الذي سلكته في حياتي . فلو قبلت بي حين كنت فلاحاً بريئاً نقي السيرة ، لما اسأت التصرف .

— ليتك تترك مكتب المقاولات ، وتعود فلاحاً كما كنت ، إذن لارتاح بالي من جهتك ، ووثقت بمستقبلي معك ووهبتك نفسي وحياتي .

— أعدك يارجاء أن أخلص لك فوقما تحلم فضائلك .

— وأنا أعدك أن أعوضك عن كل عذابك بسببي ، ببقائي إلى جانبك أبد الدهر ، وإلى اللقاء ياحبيبي ، ولتصحبك السلامة في سفرك .

— إلى اللقاء ياحبيبتي .

— تصبح على خير .

— تصبحين على خير .

○

فوجئت أم رجاء صباح اليوم التالي ، حين فتحت الباب ، فوجدت أمامها فلاحاً يحمل أربع دجاجات وسلة الفاكهة ، وقال الفلاح بجرأة :

— أليس هذا منزل الأستاذ سعيد قدري ؟؟

— نعم .. هذا منزله .

— هل ابنته رجاء موجودة في المنزل ؟

— نعم ماذا تريد ؟؟

— افسحي لي الطريق وأعلميها بقدومي .

قادت أم رجاء محباً إلى غرفة الإستقبال ، وهي تظنه أب طالبة من طالبات ابنتها ، جاء يطلب مساعدة المدرسة رجاء ، وحمل أربع دجاجات وسلة من الفاكهة هدية .

ظهرت رجاء ، ورأت الدجاجات وسلة الفاكهة ،

فضحكت وقهقهت بصوت عالٍ وضحك محب حتى انهمرت دموعهما معاً من الضحك الشديد، فدهشت أم رجاء وازدادت دهشتها حين سمعت رجاء تقول:

ــ أحضري فنجاناً من القهوة وتعالي لأعرفك على خطيبي.

قالت الأم مستنكرة:

ــ خطيبك.. أتستبدلين محامياً بفلاح، أأنت مجنونة يارجاء ؟؟

ــ أرجوك يا أمي، أعدي القهوة وتعالي لتستقبليه بلياقة، ولينزل والدي لاستقباله.

ــ أنا غير موافقة، ولن يوافق أبوك.. لو كنا نرغب في فلاح، كنا زوجناك إلى محب، ولم نتعبك بالدراسة، والإنتظار كل هذه السنين.

ضحك محب ثانية وضحكت رجاء وقالت:

ــ هو محب بنفسه يا أمي.

قالت الأم مستغربة:

ــ يوه.. كيف عثر علينا بعد كل هذه السنين ؟

ــ هو نصيبي وأنا راضية به.

انفردا معاً ــ رجاء ومحب ــ في غرفة الإستقبال وقالت رجاء:

ــ هل عدت فلاحاً أم هو مزاح ؟؟

ــ اسمعي يارجاء.. سأخبرك الحقيقة كاملة، قررت بعد حديثي معك في الفندق، أن أعود فلاحاً، فسافرت إلى الشمال فوراً، لأشتري مزرعة كبيرة، وقد اشتريت مزرعة جميلة قرب دركوش، وبادرت بعد عودتي إلى بيع حصتي في مكتب المقاولات، إلى خطيبك السابق سليم الذي حلّ بدلاً عني شريكاً في المكتب.

ــ هل خطب سليم سميرة ؟؟

ــ كيف حزرتِ ؟؟

ــ حضرت حفلة الإتفاق بين سليم وعبد الصمد في فندق بلودان، ولاحظت الود الذي نشأ بينه وبين سميرة بعد مغادرتك الفندق، فخمنت النتيجة. ولكن لِمَ لم تخبرني بعزمك على شراء المزرعة في حينه ؟

ـــ خشيت أن أفقدك مرة ثانية، فكتمت الأمر حتى طلبت بنفسك مني أن أصبح فلاحاً، ففعلت تنفيذاً لرغبتك.

فكرت رجاء في نزوحها عن دمشق، وانتقالها إلى المزرعة البعيدة، وفراقها لأهلها، فلم تقر عيناً بالخبر، بل امتعضت فقالت:

ـــ لم وضعتني في هذا الموقف الحرج، الذي كنا فيه قبل تسع سنوات.. أو تمتحن حبي ومدى تعلقي بك..؟؟

وجمت رجاء إزاء دهاء محب، ولاحظ محب وجومها فقال:

ـــ اسمعي يارجاء، وافهمي كلامي ملياً، صرت أرى انتقالنا إلى الريف ضرورياً من أجل راحتنا ومستقبل أولادنا، صدقيني يارجاء، لن تكون الإقامة شاقة في الريف بل ستكون الإقامة أكثر مشقة في المدن، مع ازدياد الإزدحام فيها.. لقد زرت أوروبا مراراً، وسنزورها معاً، وتلمسين بنفسك الإقبال في أوروبا على السكن في الريف أكثر من المدن.. رجاء تعالي معي

إلى الريف لأغمرك بحبي، وأقصر اهتمامي عليك، ويسعد بعضنا بعضاً.

دخلت أم رجاء، وناولت ابنتها صينية القهوة، لتقدم القهوة حسب أعراف الخطبة، فنهض محب ضاحكاً وقال:

ـــ مشية ابنتك رجاء الجذابة، لاتحتاج لأن تقدم القهوة وتختال أمام خطيبها، اتركي عنك ياأميرتي، واجلسي فأنا أسر بخدمتك.

بقيت رجاء واجمة، وجلست أمها تفكر في أسلوب تبعد به محباً عن ابنتها، فلم تجد أفضل من طلب مهر غالٍ، وشروط صعبة تنفر محباً، فقالت بسذاجة:

ـــ مهر ابنتي غالٍ، أريد خمسة آلاف مقدماً، ومثلها مؤخراً.

نظرت رجاء بعتب إلى أمها، بينما قال محب:

ـــ فكرت في الموضوع، فأحضرت معي عشرة آلاف، لتجهزي رجاء في غيابي، هاك المبلغ.

أخرج محب رزمة ووضعها أمام أم رجاء وقال:

ـــ أحضرت المبلغ سلفاً ، لأنني مسافر إلى المزرعة ، وأرجو أن يتم عقد قراننا بعد عودتي مباشرة .

ارتبكت أم رجاء بعدما وافق محب ، فاستدركت قائلة :

ـــ يوجد شرط أهم من هذا ، ولن يوافق والد رجاء دونه ، يجب أن تشتري فوراً ، منزلاً في دمشق وسيارة .

ضحكت رجاء ساخرة من سذاجة أمها ، وقالت :

ـــ أمي ، تتحدثين في مواضيع تجهلين تفاهتها في نظر محب ، لأن سيارته موجودة أمام الباب ، وعنده أكثر من شقة في دمشق .

نظرت الأم بإعجاب إلى محب ، وقالت بعفوية :

ـــ إذن ليشترِ لك شبكة ثمينة من الذهب والماس .

ضحك محب ، وأخرج المشط المرصع من سلة الفاكهة ، وتقدم من رأس رجاء وشبك المشط بشعرها ، فظهر كتاج يزين مفرقها ويزيد في جمالها ، فضحكت الأم مسرورة وقالت :

ـــ اعتبرني موافقة ، وزوجي موافقاً ، ولولا خرفه لاسمعتك موافقته في حضورك .. مبروك يامحب .

وقف محب وقال :

ـــ شكراً على موافقتك ياخالة ، سنحدد موعد قراننا بعد رجعتي من المزرعة ، اسمعيني موافقتك يارجاء .

نظرت رجاء إلى محب وبدا لها ممشوق القامة باللباس العربي ، وزانت الكوفية والعقال طلعته وأبرزت رجولته ، فنهضت وقالت بغنج وهي تبتسم :

ـــ هل تنتظر مني أن أوافق ، وستقلبني من مدرسة إلى فلاحة في مزرعتك ..؟

تقدم محب من رجاء وأمسك يدها وقبلها بشوق واحترام وقال :

ـــ اعتمدت على مكاشفتك الأخيرة لي ، وعلى نبلك ، فلن تحرمي محباً لك من نعمائك .

ودعت رجاء محباً حتى سيارته ، وقلبها ملهوف على

عودته ، ولوحت بيدها له مبتعداً ، ورجعت فوجدت أمها **تعد** المبلغ ، فجلستا تبحثان في شؤون العرس .

لم تطل غيبة محب عن دمشق ، فعاد بعد اسبوعين ، بعدما اطمأن إلى حسن سير العمل في تحضير المنزل ، فوجد رجاء وأمها مشغولتين بتحضير ثياب العرس فنقلهما مراراً بسيارته ، وعاد برفقتهما إلى المنزل .

قال محب يحدث رجاء :

ــ سبقنا سليم إلى عقد قرانه على سميرة ، سيتم غداً باحتفال مهيب في نادي الشرق ، لقد دعيت شخصياً فهل تحضرين معي الإحتفال ؟

ــ اعذرني يامحب ، صرت أكره تلك الوجوه كثيراً ، بعدما انكشفت على حقيقتها ، وانكشف لي طمع سليم بالمال .

ــ أقدر وضعك .

ــ ثم إنني لا أرغب في حضور أحد منهم عقد قراني .

ــ اطمئني ، سيسافران فوراً إلى أوروبا ، لتمضية شهر العسل هناك .

ــ أنا لا أفضل زيارة أوروبا في شهر العسل ، **سنزورها** في المستقبل ، بعدما نصبح أقل خجلاً من بعضنا ، وأكثر انطلاقاً .

ــ رأيك سديد ، سنمضي شهر العسل في المزرعة . كيف تريدين أن يتم عقد قراننا ..؟

ــ أفضل أن يتم باحتفال بسيط ، يضم عدداً ضئيلاً من الحضور ، وأن يجري تلبيس الخاتم وعقد القران والعرس في احتفال واحد .

ــ توافقني خطتك ، لأنني أعددت لك عرساً قروياً رائعاً في المزرعة . حسبما كنت أحلم وأنا ألاحقك شاباً يافعاً في حقلي القديم .

دمعت عينا رجاء ، فازدادتا بريقاً وحدةً وجمالاً ، ولاحظ محب تأثرها العميق وقال :

ــ أتبكين يارجاء ..؟

ــ أبكاني عمق العاطفة التي تكنها لي .

انحنت رجاء وأخذت يد محب وقبلتها لأول مرة ،

وانهمرت دموعها على ظهر يده، فشعر محب بجلال دموع الكبرياء، فضم رأسها إلى صدره وقبل شعرها ودمعت عيناه.

○

عقد قران سليم وسميرة في نادي الشرق، وأصرت سميرة على أبيها، أن يكلفه الإحتفال غالياً، نكاية بمحب، فصرف عبد الصمد كثيراً، وبدت سميرة جميلة في ثوبها الأبيض الرائع، وزينتها وحليها، وعاتبت محباً بصراحة:

ــ تخليت عني يامحب لمن لايستحقني.

هز محب كتفيه دون اكتراث، وابتعد عنها، وصار يراقب سلوك سليم الذي كان يسعى إلى إرضاء حميه وخطيبته، ويتصرف حسب أوامرهما، فتقدم منه مودعاً وقال له:

ــ إنني أرثي لحالك، ومازال الطريق في أوله، أنا كنت منهم، ولكني تخليت عنهم. وأرجو أن تفيق إلى نفسك يوماً ما.

○

عقد قران محب ورجاء، في الأسبوع الثاني، في منزل محب نفسه، واقتصر على عدد محدود، من الأقرباء والأصدقاء، وكان مقرراً أن يسافر العروسان في اليوم التالي إلى المزرعة، فباتا ليلتهما في المنزل وانفرد العروسان في غرفة النوم، وباتت أم رجاء في غرفة ثانية.

ظهرت فرحة رجاء واضحة في ألق عينيها، وفي سنى وجهها، فوقفت أمام محب بثوب العرس الأبيض، وزينتها الكاملة وقالت بخجل ووجهها يتضرج حمرة:

ــ كيف تراني يامحب..؟؟

ــ أراك مشعة كلؤلؤة، أتعبت صائدها طويلاً في البحث عنها في أعماق البحار.

ــ ألا تكون قيمتها أثمن وفرح لقائها أشد.

ــ نعم..

لم يحرك محب ساكناً، فازدادت اقتراباً منه، ونظرت إليه تدعوه إلى عناقها، فنهض محب قائلاً:

ــ سأدعك الليلة ترتاحين، حتى نسافر غداً باكراً قبل طلوع الفجر.

أمسكت رجاء يده تستبقيه في الغرفة وقالت له :

ــ انتبه يامحب .. لن تدعنا أمي نسافر إلى أي مكان ، قبل أن تدخل علي ، وأسلمها المنديل مخضباً .

أرت رجاء محباً المنديل فقال ضاحكاً :

ــ كنت أظن هذه العادة تقليداً قروياً فحسب .

ــ لا يامحب ، مازالت عادتنا في المدينة ، ولن تطمئن أمي حتى أسلمها المنديل .

ــ أعرف ذلك ، وأنا واثق من عفتك ، هات دبوساً لأريح بالك ، أتريدين أن أصبغ المنديل بدمي أم بدمك ؟

ــ لا فرق ، إنما المهم أن ترضي أمي لتنصرف عنا إلى والدي العجوز .

وخز محب اصبعه بالدبوس ، وضرج المنديل بدمه وقال :

ــ أنا قروي ، ولكني أضن على لحظات سعادتنا أن تهدر في وقت حرج حسب مشيئة الآخرين ، سأنتظر حتى نعتاد بعضنا ، ليتم بيننا لقاء رائع .

امتلأت نفس رجاء فخراً ، وازداد إعجابها بمحب ، وازداد حبها له ، وشعرت بالسعادة تملأ قلبها ، فقالت :

ــ إنني أرتبك ، بما سمعت ، إنني ابتسم ، أبكي .. إنني مجنونة بك .

واندفعت رجاء إلى صدر محب وعانقته بساعديها ، وقبلته ببراءة ، فضمها محب ولثم ركن فمها ، ثم انتقل إلى الركن الثاني ، حتى فغرت فاها ، فلقط شفتها بين شفتيه ، وقبلها قبلة حارة ، فوهنت قوى رجاء ، وغابت عن الدنيا ، وكادت تسقط إلى الأرض ، فسندها بزنديه حتى لا تسقط ، ونقلها إلى المقعد ، وكانت ماتزال شاحبة اللون وترتعش شفتها كعصفور خائف يرف بجناحيه .. فقال محب :

ــ ياأميرة دمشق .. يابنت قاسيون .. ياأروع زهرة في غوطتيها ، أحبك مدى انتشار الشمس في العالم ، أحب طهرك الذي هو قضية ، وأحب سموك الذي هو زهد وعبادة ، وأحب أنفتك وكبرياءك ونبلك ، أحب وجودك ، وأفنى من أجل لقاء نعمائك .

ــ محب .. أيها القروي العربي الصادق اللهجة ، أيها

الكنعاني العائد إلى أصالتك ، ياأمير الريف ، يابطل الثورات ..
أنا لك متى شئت .

طلع الفجر فغادر محب وعروسه دمشق ، وسافرا معاً ، وما كادت السيارة تصل إلى المزرعة وتنزل منها رجاء ، حتى دوت الزغاريد وأطلقت العيارات النارية في السماء فرحاً بعرس رجاء ومحب .

نحرت الخراف بين قدمي رجاء ، وأدخلت رجاء عند الحريم ، وألبست ثوب عرس عربي جميل مطرز وموشى وقد كتب على مدار ذيله ، ما الحب إلاّ للحبيب الأول . ثم أوقدت النيران ، وقرعت الطبول ، فأطلت رجاء من النافذة ، فشاهدت محباً وسط الحلبة يدبك ويلوح بالمنديل ، كانت تراه ويراها ويزداد شوقه إليها ، وتزداد لهفتها إليه .

اختلى محب برجاء بعد منتصف الليل ، فوجدها متعبة من السفر ، ومرهقة من السهر ، فتركها لتنام وتستريح ، ونام بدوره .

نهضت رجاء صباح اليوم التالي لعرسها ، فوجدت محباً

قد هيأ إفطاراً لذيذاً على طاولة أمام الدار ، فابتسمت قائلة :

— صباح الخير .

— صباح الخير .

— لا تتعب نفسك يازوجي العزيز مرة ثانية ، أطلب ماتريد من زوجتك فتنفذ رغبتك .

— لاتهتمي ، أحببت أن أقطع الوقت ريثما تنهضي من النوم .

— أجد السعادة في خدمتك .

تجولا في المزرعة بعد الإفطار ، وأحاط محب كتفي رجاء بذراعه ، وطوّقت رجاء خصر محب بساعدها ، وشاهدت أرجوحة فصعدت عليها بفرح طفولي ، ودفعها محب مسروراً ، وطارت الأرجوحة برجاء ، فضحكت من أعماق قلبها ، وكان محب يلتقط قبلات سريعة من فمها ووجنتيها وعينيها ، كلما اقترب من الأرجوحة ليدفعها ، أو تناهت الأرجوحة إليه .

أمضيا في المزرعة وقتاً رائعاً ، ومرا بساقية فشمرت رجاء عن ركبتيها وخاضت في الماء لاهية ، فخاض محب في الساقية

معترضاً سيرها ، وضمها وقبلها ، وارتعشا معاً من نشوتين ، إحداهما الذكرى .

أمضيا عدة أيام في لهو ومرح وقبل ، وكانت رجاء تنظر في البدء خائفة من أن يراها رقيب ، فقال لها محب :

ــ تعمدت شخصياً صرف عمال المزرعة إلى أجل ، لنبقى وحدنا .

وظلت رجاء تحتشم حتى اعتادت الجو ، واطمأن قلبها ، فصارت تستهتر في ملبسها وتصرفها ، فتعقد أطراف قميصها تحت النهدين ، وتترك بطنها حاسرة أو تشبك أطراف ثوبها في زنارها كاشفة عن فتنة فخذيها ، أو تسرح بقميص شفاف بين الأشجار مساءً كملاك جميل ، أو تستلقي فوق العشب دون احتشام .

ولم يدع محب فرصة شوق إلى مواطن الجمال في جسدها ، إلا وانتهزها ودغدغ ماتعرى من بدنها بالقبل واللمس ، وأثار أحاسيسها ، وكانت رجاء تسلس له قيادها سريعاً ، فيهملها وينصرف عنها .

ـــين الأسبوع الأول ، وحارت رجاء في أمر محب فقررت أن تصارحه دون خجل فقالت له وكان محب يؤرجحها برقة :

ــ لمَ تثيرني يامحب ، ثم تهملني ، صارحني ، أمرض تشكو منه ، أم خطة ارتأيتها ..؟

ضحك محب من تصور رجاء وقال :

ــ اسمعي ياحبيبتي ، تعمدت أن أهيئك نفسياً ، ثم خشيت على حبنا أن يتصدع في المستقبل ، بالإختلاف البيّن بين مزاجي الحار ومزاجك البارد ، أنت غرة وأنا خبير ، إني أنقلك في ملاعب الهوى نقلة إثر نقلة ، لأصنع منك أجمل وأوقح غانية لغرفة نومي ، لا أريدك زوجة فحسب بل عاشقة متهتكة .

فهمت رجاء مغزى حديثه ، فاحمرت وجنتاها خجلاً ، وشعرت بالفارق بينهما ، وكادت تحبط عزيمتها ، ولكنها حزمت أمرها على إقصاء الخجل ، أليست حليلته ! فلمَ الخجل بينها وبين زوجها ، هو لباس لها ، وهي سكن له .

نزلت رجاء من الأرجوحة واقتربت من محب ، ونضت
ـصب بغنج وألقته إلى الأرض ، ثم رفعت شعرها بدلال مثير ،
ـزت عينيها في عيني محب ، ولما لم يندفع إليها ، استبسلت
ـشبت أظافرها في قميصه ومزقته وعرت صدره ، وعانقته
حرارة وأطبقت فمها على شفتيه وهي تناديه

— حبيبي .. ضمني .. قبلني .. مزقني ..

فغمغم محب وهو يقبلها بدوره :

— حبيبتي .. زوجتي .. أنت رائعة .

وانفلتت مبتعدة عنه وهي تنظر إليه كنمرة يصعب
ترويضها ، فتبعها ملهوفاً ففرّت وحاول أن يمسك بها فنفرت ،
ـمى نفسه خلفها كالسهم ليطوق وسطها فـرقت بين يديه
وتعثرت فسقطت على العشب الأخضر ، فهوى على صدرها
ـب لا قبلاً محمومة ، حتى آنست منه فتوراً ، فركلته وابتعدت
هاربة ، ومازالا في وصال وصد بين أحضان الطبيعة حتى
دخلا المنزل وجالا غرفه وهما في كر وفر لا يفتران ، ثم أظهرت
رجاء تعباً مصطنعاً ، وركنت إلى السرير لتستريح ، ففرح محب
بتعبها وتمكّن منها ، وغابا في عناق مديد .

الفهرس

كتب للمؤلف

مذكرات منحوس أفندي	رواية	دار الأجيال	نفذت
غروب في الفجر	قصص	دار الحياة	نفذت
وعلى الأرض السلام	مسرحية	العهد الجديد	نفذت
البيت الصاخب	مسرحية	مديرية المسارح	نفذت
غرباء في أوطاننا	رواية	دار النهار	نفذت
وبعدين	مسرحية	دار الأجيال	نفذت
أجراس بلا رنين	مسرحية	اتحاد الكتاب	نفذت

تحت الطبع

فلسفة القرآن

تفسير المواضيع الفلسفية التي لم تفسر في القرآن